AL-ROWAD Journal of Science and Technology
ISSN: 3023-7467
Article Type: Research Article

Received: 16/09/2023 **Accepted:** 22/10/2023 **Published:** 01/12/2023

Political poetry of Ali bin Al-Jahm

"Prison poetry as an example"

Amer Taher Shaaban

Abstract

This research aims to shed light on the political poetry of Ali bin Al-Jahm (188-249 AH), by studying his poetry when he was imprisoned by the Abbasid Caliph Al-Mutawakkil on God. I prepared the research by talking about the role of prison in stimulating poetry, then I explained the reason for the poet's imprisonment and his connection to the environment. Politician, then I started talking about the condition of the poet at the beginning of his imprisonment, and that he did not raise his complaint by complaining, and he went on to address his successor with all confidence and pride not to take him for the words of the informants, but the matter did not last long until he started praising his successor that he was one of the relatives of the Messenger of God, may God bless him and grant him peace, who were free from sins. People, but when he did not find listening ears from the Caliph, he began gradually apologizing to him, saying that he had committed a sin and that the Caliph was worthy of pardon, until he announced it explicitly and then gained his freedom.

And even though at the beginning of his imprisonment he had removed some of the qualities of his caliph that he had praised him for, he did not rebel against him or remove his hand of obedience, which indicates the stability of his political

position, and that he was Abbasid in belonging and passion, no matter how fate beset him or how many years affected him.

The research followed the descriptive and analytical approach, and traced Ibn al-Jahm's poetry during his imprisonment and studied its implications.

Keywords: Ali bin Al-Jahm, prison, Al-Mutawakkil, challenge, reproach, apology.

الشعر السياسي عند علي بن الجهم
"شعر السجن أنموذجاً"

عامر طاهر شعبان

الملخص

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الشعر السياسيّ عند عليّ بن الجهم (188-249هـ)، من خلال الوقوف على شعره لمّا سجنه الخليفةُ العباسيُّ المتوكّلُ على الله، وقد مهّدتُ للبحث بالحديث عن دور السجن في إثارة الشعر، ثم بيَّنتُ سبب حبس الشاعر وصلته بالوسط السياسيّ، ثم بدأتُ بالحديث عن حال الشاعر أوّل حبسه، وأنّه لم يرفع عقيرته بالشكوى، وقد مضى يخاطب خليفته بكلّ ثقةٍ وكبرياء ألّا يأخذَه بأقوال الوشاة، بيدَ أنَّ الأمر لم يطل به حتّى انطلق يمدح خليفته بأنّه من أقرباء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العافين عن الناس، ولكنّه لمّا لم يجدْ آذاناً صاغيةً عند الخليفة بدأ يتدرّج في الاعتذار إليه، من أنه أتى ذنباً وأنّ الخليفة أهلٌ للعفو، إلى أن أعلنها صراحةً ثم نال حريته.

وهو، وإن كان في أوّل سجنه قد نزع بعض الصفات عن خليفته التي كان يمدحه بها، لم يتمرّد عليه ولم يخلع يد الطاعة، مما يدلّ على ثبات موقفه السياسيّ، وأنّه عباسيّ الانتماء والهوى مهما عصفت به الأقدار ونالت منه السنون.

هذا وقد اتّبع البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ، فتتبّع شعر ابن الجهم في سجنه ودرس موجباته.

الكلمات المفتاحية: علي بن الجهم، السجن، المتوكل، التحدّي، العتاب، الاعتذار.

توطئة

لعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ محنة السجن من ألصق التجارِب بالشعر السياسيّ، ذلك لأنَّ موجبها عند الأدباء طالما كان سياسياً، إذ ندر أن يسجن شاعرٌ لجريمةٍ أخلاقيةٍ أو جنايةٍ اجتماعيةٍ ما[1]، وغالباً ما يسجن لانتماءاته المذهبيّة أو مواقفه السياسيّة المناوئة للسلطة القائمة.

ومن الطبيعيّ أن يترك السجن أثرَه على نفسيّة المرء وتصوّراتِه، ونجد له صدًى في مكنوناته، وقد استطاع الشعراء التعبير عن تجربة سجنهم وسجلوا مشاهداتهم عنها، بل إنّ بعضاً منهم نبغوا في أشعارهم بعد سجنهم، وكأنّما رزئوا بمحنٍ صهرتهم وصقلت مواهبهم وكانت المسعِّر لقريحتهم، والسبب أنّ الإنسان عندما يكون مع أهله ومجتمعه يكون خِلواً من الهموم والأحزان، أمّا عندما يُفرَد وحيداً تجد البلابل طريقها إليه، فكيف إذا كانت هذه الخلوة ليلاً نهاراً في غياهب السجون، حيث يحضر الهمّ لدى وسادته ويمنعه الرقاد، عندها لاشكَّ في أنَّ الهموم ستثقل كاهله وينوء عن حملها، وتظهر شعراً على نفثات لسانه.

وهذا ما انتبه إليه النقّاد القدماء حين جعلوا السجن أو الأسر أحدَ المحفِّزات التي تجيش بسببها النفس شعراً، يقول ابن قتيبة "وللشعر أوقاتٌ يُسْرِعُ فيها أَتِيُّه، ويَسمَحُ فيها أبِيُّه، منها أوّلُ الليل قبل تَغَشِّي الكرى، ومنها صدرُ النهار قبل الغداء، ومنها يومُ شرب الدواء، ومنها الخلوةُ في الحبس والمسير"[2]، وقد نقل ابن رشيق عن القدماء قولهم: "قواعد الشعر أربعة: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب: فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع"[3]، وهم في ذلك يربطون أغراض الشعر بالحالة النفسيّة التي يكون عليها الشاعر، وأنت ترى أنّ السجن يشتمل على الرهبة والغضب معاً، فقد يخشى الشاعر سجّانه وما هو فيه فيعتذر إليه ويستعطف، وقد يغضب على من كانوا سبباً في سجنه فيعاتبهم أو يتوعدهم ويهجوهم.

---

[1] نستثني هنا ما أحدثته الثقافات الوافدة إلى العصر العبّاسيّ من انتشارٍ للهو والمجون والزندقة، سُجِنَ على إثرها بعض الشعراء، أمثال أبي نواس الذي سجنه الرشيد ليرعوي عن مجونه، وأما الذين سجنوا بالزندقة فيمكن أن ندرجهم ضمن الانتماءات المذهبية والعقدية.

[2] الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، 81/1.

[3] العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، 120/1.

وسنبحث هذه الحالات في شعر علي بن الجهم[4] لما أودعه الخليفةُ المتوكل[5] السجنَ برهةً من الزمن، ثم نفاه إلى خراسان، وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله بن طاهر[6] أن يصلبه يوماً إلى الليل ثم يحبسه مرةً أخرى، لكنّنا قبل أن نتوقّف عند أشعار ابن الجهم في السجن لابدّ من الوقوف عند أسباب سجنه.

أسباب سجن عليّ بن الجهم

تبيّن لنا مما سبق أنّ عليّ بن الجهم شاعرٌ عباسي الانتماء والهوى، كثيراً ما سجل مواقف للعباسيين على حساب خصومهم السياسيّين وخاصةً الطالبيّين، وفي عهد المتوكل غدا جليسه ونديمه، يشدو بمناقبه، ويخلّد مآثره حين رفع محنة خلق القرآن الكريم[7] وأبعد المعتزلة[8] عن مناصب الدولة، وكان كذلك كلّما نكّب المتوكل أحداً تبنّى فعله وزيّن له صنيعه، نحو ما فعله مع رموز المعتزلة كالقاضي أحمد بن أبي دؤاد

---

(4) علي بن الجهم (188-249هـ) شاعر عباسي، ينتهي نسبه إلى بني سامة القرشيين، سكن قومه خراسان، ثم انتقل أهله إلى بغداد، وكانوا من عِلْيَة القوم، نشأ عليٌّ في بغداد ونهل من منابع الثقافة العربية دون غيرها، وتفتحت قريحته الشعرية في سنٍّ مبكرة، ومال إلى مذهب أهل الحديث، عاصر المأمون فالمعتصم فالواثق، لكنه لم يفد على الأول، ومدح المعتصم بيتيمةٍ والواثق ببضعة مقطوعات، حتى إذا ما اعتلى المتوكل عرش الخلافة (232-247هـ) وفد عليه علي بن الجهم، وأكثر في مديحه والإشادة بنسبه وأعماله، لأنه رفع محنة خلق القرآن وجمع شمل الأمة، وقد اتخذ المتوكل علياً شاعراً ونديماً، لكن الوشاة ظلوا يسعون بينهما حتى غضب الخليفة عليه، وحبسه غير مرة، ثم أطلق سراحه. ينظر مقدمة ديوان علي بن الجهم، تح: خليل مردم بك، ص5-19.

(5) المتوكل على الله: جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد، بويع له بالخلافة في ذي الحجة سنة (232هـ)، بعد الواثق، فأظهر الميل إلى السنة، ونصر أهلها، ورفع محنة خلق القرآن، وكتب بذلك إلى الآفاق، كان جواداً ممدَّحاً محبّاً للعمران، اغتيل في سامراء ليلاً، بإغراء ابنه المنتصر سنة (247 ه). ينظر تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، 2/ 127.

(6) طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، أحد الأمراء الولاة، ولي خراسان بعد وفاة أبيه، واستمرّ ثماني عشرة سنة، وتوفي فيها (248 ه). ينظر الأعلام، الزركلي، 3/ 222.

(7) بدأت محنة خلق القرآن الكريم في أواخر عهد المأمون واستمرت قرابة خمسة عشرة سنةً، وأصل هذه المحنة جاءت من عقيدة المعتزلة، الذين ينفون الصفات عن الله عز وجل، ومنها صفة الكلام، مما حملهم على القول بأن القرآن مخلوق، وليس كلام الله الأزلي، كما يعتقد أهل السنة، وقد اعتنق المأمون هذه العقيدة، وزين له علماء المعتزلة الذين كانوا في بلاطه كابن أبي دؤاد وبشر المريسي حمل الناس على هذا الاعتقاد، فأوعز سنة (218ه) إلى قائد شرطة بغداد لعصره أن يمتحن الفقهاء والمحدثين بذلك، وهددهم بفصلهم من أعمالهم والسجن والجلد، ولما مات المأمون عَهِدَ إلى المعتصم بمتابعة ذلك، ففعل المعتصم فعل أخيه، وفي عهده امتحن إمام السنة أحمد بن حنبل وثبت على رأيه، فجلده المعتصم وحبسه أكثر من سنتين، ولحق الناس أذى كثير بسبب ذلك، وكان الواثق أول عهده أشدّ من سلفيه في إمضاء ذلك، إذ امتحن حتى الأسارى، ولما استخلف المتوكل رفع المحنة وأبعد المعتزلة وقرّب المحدّثين والفقهاء. ينظر البداية والنهاية، ابن كثير، 10/272-274 و307 و332-337 و351.

(8) المعتزلة: إحدى الفرق الإسلامية، أصحاب واصل بن عطاء الذي خرج برأيه على أقوال الأمة في حكم مرتكب الكبيرة، واعتزل لذلك مجلس الحسن البصري، وسمي أتباعه معتزلة، ثم كثرت فرقهم، لكنهم عُرفوا بأصولهم الخمسة، وهي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلتي المؤمن والكافر، ينظر الملل والنحل، الشهرستاني، ص44- 45 و83.

والوزير محمد بن عبد الملك الزيات والرخجي وغيرهم[9]، والمعتزلة، وإن دالت دولتهم، فحضورهم ظل قويّاً في دوائر الخلافة ومفاصل القرار.

ولم يقصر ابن الجهم شعره على الثلب بالطالبيين والمعتزلة، بل آذى به طوائف أخرى كالنصارى[10]، يروي صاحب الأغاني أن: "عليّ بن الجهم قد هجا بختيشوع[11]، فسبّه عند المتوكل، فحبسه المتوكل، فقال عليّ بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان"[12].

أضف إلى ذلك ما يقع من تنافسٍ على فؤاد المتوكل بين ابن الجهم وحاشية القصر من شعراء مثل مروان بن أبي الجَنُوب والبحتري ومغنيين وندماء، ولهذا كلّه حَمَلَ عليه هؤلاء جميعاً، وتصدّوا له، وأغرَوا به المتوكل، ولم يقفوا عند هذا الحدّ بل زعموا أن ابن الجهم كان يلاعب خدم القصر ويغمزهم، فتغير قلب المتوكل عليه بعد أن كان مستودع سره بضعاً من السنين، وأمره بأن يلزم داره ففعل وانقطع عن القصر، ولكن الندماء لم يتركوه وشأنه بل زيّنوا للخليفة أن ابن الجهم كثير الطعن على أخلاقه والإزراء بأفعاله ما أغضب المتوكل فانقلب عليه وأمر بحبسه لسنة (237هـ)[13].

ويتحامل صاحب الأغاني على عليّ بن الجهم حين يروي أنه "خُصّ بالمتوكل حتى صار من جلسائه، ثم أبغضه لأنّه كان كثير السِّعاية إليه بندمائه والذِّكر لهم بالقبيح عنده، وإذا خلا به عرَّفه أنهم يَعيبونه

---

(9) أحمد بن أبي دؤاد الإيادي: أحد قضاة المعتزلة، وهو الذي حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن، ولد سنة 160هـ، كان عارفاً بالأخبار والأنساب، شديد الدهاء، محبّاً للخير، اتصل بالمأمون فقربه فلما قرب موته أوصى به أخاه المعتصم، فجعله قاضي قضاته، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلها، ولما مات المعتصم اعتمد الواثق على رأيه، فلج في أول خلافة المتوكل سنة 233 هـ، غضب عليه المتوكل وعزله عن القضاء، توفي مفلوجاً ببغداد سنة 240هـ. ينظر الأعلام، الزركلي، 1/ 124.

محمَّد بن عبد الملك الزَّيَّات: هو أبو جعفر, محمَّد بن عبد الملك بن أبان، اشتهر بابن الزَّيَّات لأنَّ جدَّه أباناً كان تاجراً بالزَّيت، ولد سنة (173 هـ), ونشأ ينهل من علوم اللغة والآداب الأجنبية وغيرها، عيَّنه الحسن بن سهل كاتباً في الدَّواوين بعد أن امتدحه، وما لبث أن استوزره المعتصم فالواثق، نكبه المتوكِّل بعد أربعين يوماً من خلافته لما كان بينهما ولمحاولته صرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ولدسائس أعدائه، حبسه في تنور كان يعذب فيه معارضيه، حتَّى مات فيه سنة (233 هـ)، ويروى أنّ المتوكل ندم على مقتله، وقيل إنه لم يجد عنده من الأملاك والضياع والذخائر ما يستوجب العقاب والقتل. ينظر وفيات الأعيان، ابن خلّكان، 5/ 94-100.

الرُخَّجي: هو عمر بن فرج الرُّخَّجي، كان من بطانة الواثق، وكله على أخيه المتوكل يكتب أخباره، فلما أفضت الخلافة إلى المتوكل أمر بحبسه وقبض ضياعه وأمواله. ينظر تاريخ الطبري، ابن جرير الطبري، 30/11،27.

(10) لما أمر المتوكل أهل الذمة أن يشدوا على أوساطهم المناطقة تمييزاً لهم عن المسلمين أنشد ابن الجهم في ذلك شعراً، فآذى به النصارى وأهل الذمة جميعاً. ينظر تكملة الديوان، ص192، والعصر العبّاسيّ الثاني، شوقي ضيف، ص261.

(11) بَخْتَيْشُوع (-256 ه): هو بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع بن جرجس: طبيب سرياني الأصل مستعرب، قربه الخلفاء العباسيون ولا سيما المتوكل، فعلت مكانته وأثرى حتى كان يضاهي المتوكل في الفرش واللباس، خدم الواثق والمتوكل والمستعين والمهتدي والمعتز. وصنف كتابا في (الحجامة) على طريقة السؤال والجواب، مات ببغداد. ينظر الأعلام، الزركلي، 2/ 44.

(12) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 164/10.

(13) ينظر مقدمة ديوان علي بن الجهم، ص12.

ويَثلبونه ويتنقّصونه، فيكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقةً، فنفاه بعد أن حبسه مدة"[14]، إذ يحمله مسؤولية البلاغات الكاذبة للمتوكل، ولا يتحدث عن سعي الوشاة به.

وقد أظهر ابن الجهم في الحبس تصبُّراً وتجلُّداً وهجا خصومه، وكتب شعراً يُظهر فيه ولاءه لخليفته، فرقّ له الخليفة وهمَّ أن يطلق سراحه، لكن ندماء القصر وأقران السياسة وأنداد الشعر تألبوا عليه، وعارضه مروان بن أبي الجنوب بقصيدة ردَّ فيها عليه معانيه[15]، فتركه المتوكل في محبسه، وما فتئوا يسعون به حتى أمر الخليفة أن يقيَّد في حبسه[16].

وبدأ الشاعر يخاطب الخليفة في شعره، رادّاً على مزاعم خصومه، وكان هؤلاء يتوسلون بأنواع الحيل ليحولوا دون إطلاق سراحه، وأرادوا به كيداً مرةً أخرى واتّهموه بأنّ نفسه سولّت له هجاء المتوكل، ما أثار كوامنه عليه، فصادر أمواله ونفاه إلى خراسان بعد أن لبث سنةً في السجن، وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يصلبه يوماً إلى الليل، وكان ذلك سنة (239هـ)، فلما وصل الشاذياخ[17] صلبه طاهر في قطعٍ من الليل مجرداً من ثيابه ثمّ أودعه السجن، فتودّد له فلم يأبه به، ولم يذكر المؤرخون كم بقي في حبس طاهر حتى أطلق سراحه تنفيذاً لأمر الخليفة، ووصله وحمله وكساه اتقاءً للسانه [18].

ومما سبق يتضح لنا أن سبب حبس عليّ بن الجهم كيدي – سياسي، فماذا حملت أشعاره في سجنه من معانٍ، وهل عبّرت عن مذهبه في الدين ورؤيته في السياسة؟

(14) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 163/10.
(15) لم يجد الباحث قصيدةً لمروان يردّ بها على ابن الجهم مديحه المتوكل، وهو في الحبس!
(16) ينظر مقدمة الديوان، ص12- 13.
(17) من ضواحي نيسابور، كانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر بن الحسين، بناها لجنده لما قدم والياً على خراسان وضاقت مساكنها منهم، خرّبها التتر سنة 617ه. ينظر معجم البلدان، ياقوت الحموي، 3/ 305-307.
(18) ينظر مقدمة الديوان، ص14- 15.

شعر علي بن الجهم في السجن

يوجّه عليّ بن الجهم من سجنه رسالةً شعريّةً لأخيه، ويحمّلها معاني يريد أن تصل آذان المتوكل، مفادها أنه يسلِّم لقضاء الله وقدره ولا يستسلم لما اتُّهم به، ولئن كان الخليفة أصمّ أذنيه عن شكواه وأغلق أبوابه دونه فإن باب الله لا يغلق، فهو من يفزع إليه لكشف الضر ورفع البلاء، يقول[19]:

تَـوَكَّـلْـنـا عَـلى رَبِّ السَّـــمـاءِ وَسَـــلَّمنـا لِأَســبـابِ القَضـــاءِ

وَوَطَّـنّـا عَـلى غِـيَرِ الـلَّـيـالي نُفوســاً ســامَحَت بَعدَ الإِباءِ

وَأَفـنِـيَـةُ الـمُـلـوكِ مُـحَـجَّـباتٌ وَبـابُ اللَّهِ مَـبـذولُ الـفِـنـاءِ

فَمـا أَرجو سِـــواهُ لِكَشــفِ ضُرّي وَلَـم أَفـزَع إِلى غَـيرِ الـدُّعـاءِ

وَلِـم لا أَشــتَـكي بَـثّي وَحُـزني إِلى مَـن لا يَصَـــمُّ عَـنِ الـنِّداءِ

والملاحظ أنّ الشاعر لم يستعطف خليفته، فنفسه الأبّية تمنعه من ذلك، لكنه على الرغم من توجهه إلى الله بدعائه وتسليمه بقضائه لم يُفاصل المتوكل، حيث يستحضره في مفتتح قصيدته مشاكلاً بين اسمه ومبدأ "التوكل على الله"، وهو ما يشي بأنّه لا يزال على العهد في وفائه له، وهذا ما أعلنه صُراحاً في ختام القصيدة حين قال[20]:

أَنـا الـمُـتَـوَكِّـلِيُّ هَـوًى وَرَأيـاً وَمـا بِـالـواثِـقِـيَّـةِ مِـن خَـفـاءِ

وَمـا حَـبسُ الـخَـليـفَـةِ لي بِـعـارٍ وَلَـيسَ بِـمُـؤيِسي مِـنـهُ الـتَّـنـائي

فابن الجهم لم ينزع في سجنه لقب الخليفة عن المتوكل، بل هو على مذهبه في نصرة السنة، مخالفاً في ذلك ما فعله الواثق، لا يعيبه حبس الخليفة له، ولن تجفو الأيام بينهما.

ولعل أحد الأسباب التي حدت به ليعلن تأييده لخليفته هو رمي أعدائه له عن قوس واحدة وتنكّب أصدقائه، فقد خاب ظنّه فيهم، إذ أنكروا حق الصحبة ولم يذكره أحدٌ منهم بخيرٍ عند مولاه، ولم يشفعوا له عنده، بل كانوا عوناً لنوائب الدهر عليه، وفعلوا به فعل أعدائه، يقول مخاطباً أخاه[21]:

أَلَـم تَـرَ مُـظـهِـريـنَ عَـلَيَّ غِشّــاً وَهُـم بِـالأَمـسِ إِخـوانُ الصَّـــفـاءِ

بُـلـيـتُ بِـنَـكـبَـةٍ فَـغَـدَوا وَراحـوا عَـلَيَّ أَشَـــدَّ أَســـبـابِ الـبَـلاءِ

---

(19) الديوان، ص81-82.

(20) الديوان، ص85.

(21) الديوان، ص83-84.

أَبَـت أَخـطـارُهُـم أَن يَـنصُـرـوني بِـمـالٍ أَو بِـجـاهٍ أَو بِـراءِ(22)
وَخـافوا أَن يُـقـالَ لَـهُـم خَـذَلـتُم: صَـديقـاً فَـادَّعَـوا قِـدَمَ الجَـفـاءِ
تَضـافَرَتِ الرَّوافِضُ وَالنَّصـارى وَأَهـلُ الإِعـتِزالِ(23) عَـلى هِـجـائي

وهذا ما يحصل غالباً مع أيّ سجينٍ، إذ يذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار أنّه كتب على باب السجن: "هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وتجربة الصديق وشماتة الأعداء"(24).

وفي مقامٍ آخر يضمّن الشاعر قصائده رسائل أخرى إلى خليفته، إذ يبدأ قصيدةً له بحوارٍ بينه وبين عاذلته، يُفصح فيه عن خواطره ومشاعره على عادة شعراء العرب وهم يذكرون صاحبتهم، وهي تلومهم لإتلافهم أموالهم أو إفراطهم في الشجاعة والإقدام، ونحو ذلك من الأشياء التي يُظهر الشاعر من خلالها موقفه النبيل ردّاً على عاذلته، ولائمةُ ابن الجهم هنا تقرّعه على حبسه، ذلك لأنّ الحبس في عرفهم لأصحاب الجنايات والمُحدِثين، وهو يردُّ عليها بتصوير عزة نفسه وكبريائه على الرغم من سجنه من خلال سيلٍ من الصور، جعلت نقاد الشعر العربي القديم يقفون معجبين بها، بل جعله بعضهم من أشعر الناس لأجلها.

وهو فيها يشبّه نفسه مرةً بالسيف القاطع المُغمد، وأخرى بالأسد الهادر وهو في عرينه، وثالثةً بالشمس تغيب ليلاً لتسطع مجدّداً، ورابعةً بالبدر المحتجب آخر الشهر ليبدأ دورةً جديدةً، وخامسةً بالمطر الحبيس في غمامه ليغيث الناس أخرى، وسادسةً بالنار الكامنة في حَجَرها ما تلبث أن تندلع، وسابعةً بالرماح التي تحدّ بعد صليها بالنار والحديد، يقول(25):

قالَت: حُبِسـتَ، فَقُلتُ: لَيسَ بِضـائِرٍ حَـبسي وَأَيُّ مُـهَـنَّـدٍ لا يُـغـمَـدُ؟
أَوَمـا رَأَيـتِ اللَـيـثَ يَـألَـفُ غـيلَـهُ كِـبراً وَأَوبـاشُ السِـبـاعِ تَـرَدَّدُ
وَالشَـمسُ لَـولا أَنَّـهـا مَـحـجوبَـةٌ عَن نـاظِرَيـكِ لَمـا أَضـاءَ الفَرقَـدُ
وَالـبَـدرُ يُـدرِكُـهُ السِّـرارُ فَـتَـنـجَـلي أَيّـامُـهُ وَكَـأَنَّـهُ مُـتَـجَـدِّدُ
وَالغَـيـثُ يَحصُرُهُ الغَـمـامُ فَمـا يُرى إِلّا وَرِيِّـقُـهُ يُـراحُ وَيَـرعُـدُ
وَالـنـارُ في أَحـجـارِهـا مَـخـبـوءَةٌ لا تُصـطَـلى إِن لَـم تُـثِرهـا الأَزنُـدُ

(22) الراءُ: الرأي، الديوان، ينظر ص83، وفي الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: "أو ثراءِ"، 165/10.
(23) قطعت الهمزة للضرورة الشعرية.
(24) عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، 149/1.
(25) الديوان، ص 41- 43.

وَالـزاعِـبِـيَّـةُ[26] لا يُـقـيـمُ كُـعـوبَـهـا إِلّا الـثِـقـافُ وَجَـذوَةٌ تَـتَـوَقَّـدُ

وكان حريّاً به أن يأتي بخلاف هذه الصور، فالشاعر في سجنه مثل سيفٍ ثُلِمَت بعد حدٍّ مضاربه، وأسدٍ استأنس وشمسٍ أفَلَت... وهكذا، لكنه بذلك "يحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده، فنفسه لا تضعف ولا تهون، بل لعلّ نيران هذه المحنة قد زادتها صلابةً فوق صلابة، إنّها من جوهرٍ كريمٍ لا تذيبه المحن والخطوب ولا كلّ ما يُسام به من ضروب الخسف والعسف"[27].

والحقُّ أنّ الشعراء القدماء قد أتَوا على بعض هذه الصور في قصائدهم، لكن ابن الجهم استطاع أن يكثر منها وحَشَرَها مجتمعةً للتعبير عن مشاعره وثبات مبادئه في السجن، فالمشبه في كل هذه الصور واحدٌ بينما المشبه به مختلف شكلاً في كلّ مرةٍ، ووجه الشبه ثابت فيها جميعاً، وما هذا الاجتماع المقصود إلا للتأكيد على أنّ الأصل لا يتغير مهما مرّت به الشدائد، بل إنّ المحن تزيد كريم المحتد رفعةً وثباتاً، وكأن السجن ما هو إلا اختبار لثباته وجلده.

وما افتخار ابن الجهم بهذه الصفات إلا ليعلن أنه قبل المواجهة والتحدي مع خصومه، ولعل هذا السبب هو الذي جعل القصيدة تخلو من استعطاف الخليفة ومدحه كذلك، فقد جاءت هذه الصور لدى الشاعر "في سياق برهاني على ثباته وتجلده في مقابل صورة اللوم والتقريع والإدانة في مطلع الأبيات، وقد فجرت فيه كلمتها (قالت حبستَ) سيلاً هادراً من الصور المتلاحقة الموحية بقوته وعنفوانه وتجدده، واحتفاظه بصفاته ومثله وقيمه"[28].

ويُتْبِعُ ابن الجهم هذه التشبيهات بحِكَمٍ يريد من خلالها أن يثبّت المعنى في ذهن مخاطبه، وهو يشير إلى أنّ ظلام السجن مهما طال فلابدّ أن ينجلي، وأنّ المال عارية مستردة وظل زائل، والدهر لا يثبت على حَدَثانه، وقد تأتي المنح في طيات المحن، وهو يدرك أن سلطة الخليفة أعلى سلطة، وهذا يدلُّ على أنّ ما قاله من معانٍ في تحسين الحبس إنّما هي دليلٌ على رفضه الذلّ والهوان، وهو كذلك ليس ضعفاً من الشاعر، وإنّما تمسكٌ بالحياة الحرة الكريمة، يقول[29]:

---

[26] رماحٌ تنسب إلى رجلٍ من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الأسنة، والزاعبي من الرماح: الذي إذا هزّ تدافع كلّه، كأنّ آخره يجري في مقدّمه للينه. ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة (زعب)، 449/1.

[27] العصر العبّاسيّ الثاني، شوقي ضيف، ص268 – 269.

[28] الصورة الفنية في شعر علي بن الجهم، عبد السلام الراغب، ص120.

[29] الديوان، ص43-45.

غِـيَرُ الـلَـيـالي بـادِئـاتٌ عُـوَّدٌ وَالـمـالُ عـارِيَـةٌ يُـفـادُ وَيَـنـفَـدُ
وَلِـكُـلِّ حـالٍ مُـعـقِـبٌ وَلَـرُبَّـمـا أَجلى لَـكَ المَكروهُ عَمّـا يُحـمَـدُ
صَـــبراً فَـإِنَّ الصَـــبرَ يُعقِبُ راحَـةً وَيَـدُ الـخَـليـفَـةِ لا تُـطـاوِلُـهـا يَـدُ

ثم يعود إلى الافتخار بحبسه، إذ إنّه لم يحبس لجريمة ارتكبها أو جريرة فعلها، وإذا لم يكن الحبس لذلك فأهلاً ومرحباً به، إنّه يُجدِّد كرامة الإنسان، ويقصده الناس زائرين مُقدِّرين، وفيه يرتاح المرء من ذلّ حجّاب الخليفة، وهذه فلسفة جديدةٌ في الحبس مصدرها عزة نفس الشاعر وتحدّيه خصومه، حيث جعل الحبس مثل بيته يجد فيه راحته، يقول[30]:

وَالحَبسُ مـا لَم تَغشَـــهُ لِـدَنِيَّـةٍ شَـــنـعـاءَ نِـعـمَ الـمَـنزِلُ الـمُـتَـوَرَّدُ
بَـيـتٌ يُـجَـدِّدُ لِـلـكَـريـمِ كَـرامَـةً وَيُـزارُ فـيـهِ وَلا يَـزورُ وَيُـحـفَـدُ
لَـو لَـم يَـكُـن فِي السِّـــجـنِ إِلّا أَنَّـهُ لا يَســتَـذِلُّـكَ بِـالـحِـجـابِ الأَعـبُـدُ

وتؤكد الأبيات صحة ما أشار إليه البحث من قبلُ أنّ سجن ابن الجهم كان سياسياً، ولا ندري هل هي كرمى له وحدَه أن يزوره الناس أو أنّ السجناء أمثاله في ذلك الوقت لا يُحجبون عن زائريهم؟ وربما كان هذا الأمر شائعاً في زمانهم، وقد أشار إليه صالح بن عبد القدوس حين سجن لسوء عقيدته، حيث قال[31]:

قُـبرنـا ولـم نـدفـن فـنـحـن بـمـعـزل من الناس لا نُخشى ـ فنُغشى ـ ولا نَغشى ـ

ولعلّ بعض المســجونين كان لهم حظٌّ من دعوة نبي الله يوســف عليه الســلام حين دعا لهم لما حبســه عزيز مصرــ، فقال: "اللهم أعْطِف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمِ عليهم الأخبار"[32]، فكانت الناس تزورهم وتأتيهم بالأخبار[33].

---

(30) الديوان، ص45.
(31) ديوان صالح بن عبد القدوس، ص137.
(32) عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، 148/1.
(33) وقد وقف على ذلك عاصم بن محمد الكاتب لما حبسه أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف في قصيدته التي عارض فيها ابن الجهم كما سيأتي، ومنها قوله يتحدث عن السجن:

إن زارني فيه العـــدو فشامـــتٌ يبـــدي التـــوجـــع تـــارةً ويفـــنـّــد
أو زارني فيـــه المحب فموجعٌ يُـــذري الدمـــوع بزفـــرة تـتـــردد

المحاسن والأضداد، المنسوب إلى الجاحظ، ص71.

وهذه المعاني التي طرقها الشاعر في الصبر على الحبس وتحسين السجن هي من حرّ الشعر، لم يُقل في معناها مثلها ولم يَسبق إليها أحدٌ، وقد استحسنها القدماء وقلما غفلوا عن ذكرها في مؤلفاتهم[34]، وقد أُعجب ابن المعتزّ بتوليد هذه المعاني وبالغ في استحسانها، وذكر أنّ ابن الجهم لما حُبس وقال قصيدتيه الدالية واللامية حكم له الشعراء بأنه "أشعر الناس"[35] وأذعنت له الأمراء.

وقد سبق وأشار الباحثُ إلى أن الأصفهاني كان متحاملاً على ابن الجهم، وقد ذكر قصيدته هذه مصرّحاً أنّها أحسن شعره في الحبس، كما روى قول غيره يوهم المدح به، فقال: "ما شعر عليّ بن الجهم في الحبس بدون شعر عَدِيّ بن زيد"[36]، ويرى مُحقِّقُ الديوان - وهو شاعر يتذوق الشعر ويُقْبَلُ حكمه فيه- "أنّ مقطعاً واحداً من قصيدة ابن الجهم خيرٌ من كلّ ما قاله عدي بن زيدٍ من الشعر"[37]، وقد أعجب الثعالبي بشعر ابن الجهم وقال عنه: "وهو في المُحدَثين كالنابغة في المتقدمين"[38]، وذلك أنّ النابغة شبّه النعمان مرّة بالليل وأخرى بالشمس[39]، وشبّه عليٌّ نفسه بالسيف المُغمد حال الحبس كما شبه نفسه بالسيف المسلول حال الصلب[40]، وهذه تشبيهات بكرٌ في معانيها.

---

[34] من الكتب التي استحسنتها طبقات الشعراء لابن المعتز، وعيار الشعر لابن طباطبا، والمحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ، ومروج الذهب للمسعودي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، وغيرها كثير.

[35] طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص321، كما أعجب المؤرخون بها، فقال المسعودي عنها: "وله في الحبس شعرٌ معروفٌ لم يسبقه إلى معناه أحد، وهو قوله: قالوا حبست..."، مروج الذهب، 129/4، وقال ابن خَلِّكان: "وله وقد حبس أبياته المشهورة التي أولها: قالت حبست...، وهي أبيات جيدة في هذا المعنى لم يعمل مثلها، ولولا طولها لذكرتها". وفيات الأعيان، 3/ 357.

[36] الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 166/10.

[37] الديوان، ص25.

[38] خاص الخاص، الثعالبي، ص124.

[39] إشارةً إلى قوله: فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكي وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ
وقوله: بِأَنَّكَ شَمسٌ وَالمُلوكُ كَواكِبٌ إِذا طَلَعَت لَم يَبدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ
ديوان النابغة الذبياني، ص38 و74.

[40] إشارةً إلى قوله: قالَت حُبِستَ فَقُلتُ لَيسَ بِضائِرٍ حَبسي وَأَيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغمَدُ
وقوله: ما عابَهُ أَن بُزَّ عَنهُ لِباسُهُ فَالسَيفُ أَهوَلُ ما يُرى مَسلولا

ولا بأس أمام هذه المعاني الطريفة في تجميل الحبس من الإشارة إلى أنّ الكاتب العبّاسيّ عاصم بن محمد[41] لما حبسه أميره أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف قد عارض قصيدة ابن الجهم الدالية ونقض معانيها، وأقرّ بظروف الحبس السيئة، فجاءت قصيدته خطاً موازياً لقصيدة ابن الجهم في بنائها على الشكوى، وجاء مطلعها[42]:

قالت: حُبستَ، فقلت: خطبٌ أنكد ... أنحى علي به الزمان المُرْصدُ

لو كنتُ حراً كان سربي مطلقاً ... ما كنت أُحبسُ عنوةً وأُقيدُ

لو كنتُ كالسيف المهند لم يكن ... وقت الكريهة والشدائد يغمدُ

من قال إنّ الحبس بيت كرامة ... فمكاثرٌ في قوله متجلدُ!

ما الحبس إلا بيتُ كل مهانةٍ ... ومذلةٍ ومكارهٍ لا تَنفدُ

فما غاب في قصيدة ابن الجهم من استجداء واستخذاء نجده هنا، فابن عاصم يعلن مراراً أنّه لا قِبَلَ له بما رماه به الدهر، وينقض تشبيهات ابن الجهم، ويصف ظلام السجن ووحشته وعناء قيوده، ويتوسل إلى أميره أن يطلق سراحه، "ومرد التباين بين الموقفين في مواجهة الحبس إلى التكوين الذاتي، فأما ابن الجهم... [فكان] على قدرٍ من العنفوان والكبرياء الجريح، [وله مكانته في المحافل الأدبية وفي القصر.]، [فاستمسك] بالتجلد والتعالي في وجه الشماتة، وأمّا عاصم بن محمد فكان كاتب ديوانٍ مغموراً، غاية أمله أن يفوز برضا مخدومه وصفحه، ولم يذكر بغير معارضته لدالية ابن الجهم"[43].

ومن المفيد هنا أن نشير إلى عدم التزام ابن الجهم بالتقاليد الفنية لبناء قصيدته السابقة على نهج الأقدمين، وهو الشاعر ذو الثقافة العربية، إذ جرت العادة أن تفتتح القصائد الطوال، وتلك التي تنال إعجاب النقاد القدماء بالطلل أو النسيب أو ما يشبه ذلك، يمهّد بها الشاعر لغرضه الأساسي، وقلّ من افتتح قصائده بحوارٍ مع عاذلته من

---

[41] لم تترجم المصادر التي نقلت قصيدته له سوى أنه كاتب بليغ، قال قصيدته لما سجنه الأمير أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي، ولم أجد ترجمةً له سوى ما ورد في معجم الشعراء للمرزباني، ص273، تحت باب من اسمه عاصم: "عاصم بن محمد الكاتب، محدث متأخر كان في ناحية ابن أبي البغل"، وذكر شعراً له، وقد ذكره عبد العزيز الحلفي في أدباء السجون، وقال لم تعرف له سوى هذه القصيدة في حبسه. ينظر أدباء السجون، ص192.

وأما ابن أبي دلف الذي سجن عاصماً فهو أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجليّ: أمير من بيت مجد ورياسة، كان من الولاة في أيام المعتمد على الله والمعتضد بالله العبّاسيّين، توفي (280هـ)، ينظر الأعلام، الزّركْليّ، 1/ 151، وهذا يدلنا على أن الكاتب عاصم بن محمد عاش في زمانه.

[42] المحاسن والأضداد، المنسوب إلى الجاحظ، ص 70-71.

[43] الأسر والسجن في شعر العرب، تاريخ ودراسة، أحمد مختار البزرة، ص485.

دون تمهيد لما يريد، ولعل السجن استدعى هذا المطلع، فالشاعر السجين له دواعٍ أخرى في ذلك، وهو في شغلٍ عن الالتزام بهذا التقليد، وربما أنه يرى في هذه المرأة اللائمة –التي قد تكون زوجه- دافعاً لثباته ومحركاً لبطولاته.

ويبدو أنّ هذه المرأة التي كانت تلومه على سجنه قد كفت عن لومها له بعد ما رأت ثباته، بل غدت راغبةً في لقائه، مشتاقةً إلى وصله، فطرقته زائرة تطمئنّ عليه في سجنه، متجاوزة أحراس السجن، غير آبهةٍ بما يلاقيها في سبيل ذلك، وراحت تتجاذب معه أطراف الحديث ضمن حوار غرامي مؤثّرٍ، يقول[44]:

أَلَمَّـت وَجُنحُ اللَّيـلِ مُرخٍ سُـــدولَـهُ وَلِلسِـــجنِ أَحراسٌ قَليـلٌ هُجودُهـا

فَقُلـتُ لَهـا: أَنّى تَجَشَّـــمتِ خُطَّـةً يُحَرِّجُ[45] أَنفـاسَ الرِيـاحِ وُرودُهـا؟!

فَقـالَـت: أَطَعنـا الشَـــوقَ بَعـدَ تَجَلُّـدٍ وَشَرُّ قُـلوبِ العـاشِـــقينَ جَليـدُهـا

فهذا الطيف الذي يتخيله الشاعر من تداعيات السجن وظلاله، وهو تعويض عن الحرمان الذي يصيب السجين، إذ يهجم الحنين عليه وسط وحدته وعذاباته النفسية فيشتاق عهود الهوى والوصال وراحة البال والاستقرار، وذلك لا يوجد في غير المرأة التي تمثل المودة والرحمة، وهي التي لا تهجر وصال حبيبها مهما عصفت به الأقدار، وربّما أراد ابن الجهم بوصاله هذه المرأة عودة وصاله مع الخليفة، فهو يريد للعلاقة بينه وبين الخليفة أن تعود كهذه العلاقة.

ويبقى الشاعر على خلاف الواقع الذي هو عليه فلا يصوِّر نفسه ضعيفاً في سجنه، فهو، وإن لانت قناته فيما بعد أمام الخليفة، لا يزال جلداً ثابتاً أمام المرأة ربّما لأنّه يريد منها ألّا تضعف وأن تصبّره على سجنه، لذلك يصوِّرها طالبة لا مطلوبة، ويصور اكتواءها بنار الشوق وسخاء دمعها، والحق أنّه هو الذي يكتوي ويذرف دمعه مدراراً، ولكنَّ ظلمتي السجن والليل تخفيان دموعه، يقول[46]:

وَأَعلَنـتِ الشَـــكوى وَجـالَـت دُموعُهـا عَلى الخَـدِّ لَمّـا التَفَّ بِـالجيـدِ جيـدُهـا

فَـقُـلـتُ لَـهـا وَالـدَّمـعُ شَـــتّى طَـريـقُـهُ وَنـارُ الـهَوى بِـالشَـــوقِ يُـذكى وَقـودُهـا

إِذا سَـــلِمَت نَفسُ الحَبيـبِ تَشـــابَهِت صُروفُ اللَيـالي سَـــهلُهـا وَشَـــديـدُهـا

---

[44] الديوان، ص50-51.

[45] الحَرِجُ: الَّذِي لَا يَنْهَزِمُ، كأنه يَضِيقُ عَلَيْهِ العُذْرُ فِي الِانْهِزَامِ، أي يهزم غيره ولا يُهزم، والحَرِجُ: الَّذِي يَهَابُ أن يتقدَّم عَلَى الأمر، وَهَذَا ضَيّقٌ أَيضاً. ينظر لسان العرب، ابن منظور مادة (حرج)، 2/ 234.

[46] الديوان، ص51.

وبمثل افتخاره بسجنه واعتداده بأفعاله يزهو الشاعر بقيوده، ويرى فيها زينةً للرجال، وهذه صورةٌ مخالفة لما يراه الشعراء في القيود، التي هي رمز لحجز الحرية والذل والامتهان، يقول[47]:

فَلا تَجزَعي إِمّا رَأَيتِ قُيودَهُ فَإِنَّ خَلاخيلَ الرِجالِ قُيودُها

والواقع أنَّ القيد سجنٌ ثانٍ للإنسان، فإذا ما كان السجن قد منعه من الخروج إلى العالم، فإنّ القيد يمنعه من التحرّك في المكان، إضافةً إلى صوت السلاسل المزعجة وآثارها المؤلمة، لكنْ لابن الجهم رأي آخر، ولعل لهذا الشعور دوافع نفسية يحاول صاحبها أن يعوض ما أصابه "من سقوط وهوان في منزل الذل والظلم، فيسعى وقد خسر مكانته أن يوثق نفسه وأن يعيد لها قيمتها واعتدادها، فيقابل الوقائع الصارخة بالادعاء الواهم، ويضع التشامخ الرافع في مواجهة الذل الخافض، والقوة في وجه الضعف"[48].

ويبدو أنّ هذا التصبر أمام هذه الزائرة لم يجدِ نفعاً، فهي لا تفهم غير لغة الوصال، لذلك يبشرها الشاعر أنّ لحظات الفرج واليسر ستعود، وستعشب كسابق عهدها بفضل أمير المؤمنين، وهو هنا يصرعه كبرياؤه، ولو مؤقتاً، ويستعطف الخليفة ويستحثه على إطلاق سراحه، وكأنّه يخبره أنّ ابن الجهم لا يزال على الودّ والوفاء مهما عضّت به السنون وآلمت جسدَه السجون، حاله حال هذه الزائرة المستهامة، لكنه من طرفٍ آخر لم ينعته بالخليفة كما كان من قبل، بل يخاطبه بأمير المؤمنين، وكأنّ المتوكل لم يعد الخليفة المثال عنده، يقول في آخرها[49]:

وَلا تُنكِري حالَ الرَّخاءِ وَفَوتَهُ فَإِنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ يُعيدُها

لقد "مزج عليّ بن الجهم الشكوى بالاستعطاف والاسترحام، أما الشكوى فهي حاضرةٌ مع الدمع والشوق والقيود، وذلّ السجن بفوت حال الرخاء، وأما الاستعطاف فهو ساكن في معاني الأبيات يقوده طيف حبيبة الشاعر...، والاستعطاف ساكن في البكاء الحار...، وفي كلام الشاعر للحبيبة، وفي طلب الرحمة من الخليفة كما هو واضحٌ في عجز البيت الأخير، وفي كلمة (يعيدها) التي تحمل رجاءً واستعطافاً، وسؤالاً واسترحاماً، فهي وعاءٌ لطلب العفو والمغفرة"[50].

---

[47] الديوان، ص51.

[48] الأسر والسجن في شعر العرب، تاريخ ودراسة، أحمد مختار البزرة، ص456.

[49] الديوان، ص51.

[50] بحث "شعراء عباسيون في غياهب السجون"، د. محمد حسين عبد الرحيم السماعنة، ص130.

وتستمر وتيرة الثبات والاعتداد بالارتفاع عند الشاعر، إذ لا يفتأ يعاتب خليفته لحبسه، ويتهمه بعدم التدقيق فيما نسب إليه من تهمٍ من خصومه، وفي ذلك ازورارٌ عن شرع الله، وهو هنا لا يخلع عليه القيم التي كان يمدحه بها من قبل، إنّما يعاتبه للعدول عن شرع الله، ويذكّره، عساه ينفع التذكير، بأنّه أولى الناس بالالتزام بشرع نبيّه ﷺ، إذ إنّه من آله وقرابته، يقول مُحمّلاً رسالته لقاضي القضاة المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد، وذلك قبل أن ينقلب عليه[51]:

يـا أَحـمَـدُ بـنَ أَبي دُؤادٍ إِنَّـمـا تُـدعى لِكُـلِّ عَـظيـمَـةٍ يـا أَحـمَـدُ
بَـلِّـغ أَمـيرَ الـمُـؤمِـنـينَ وَدونَـهُ خَوضُ العِـدى وَمخـاوِفٌ لا تَنفَـدُ
أَنـتُـم بَـني عَـمِّ الـنَـبِيِّ مُـحَـمَّـدٍ أَولى بِـمـا شَرَعَ الـنَـبِيُّ مُـحَـمَّـدُ
مـا كـانَ مِن حَسَـنٍ فَـأَنتُم أَهلُـهُ طابَت مَغارِسُـكُم وَطابَ المَحتِدُ

وهذا العتاب من الشاعر تجاه خليفته لا يخلو من اللوم، بل هي صرخة عاليةٌ أنّه سجن حَيفاً وكيداً من خصومه، ونراه مرةً أخرى لا يخاطب المتوكل بلقب الخلافة، بل بأمير المؤمنين، ويخبره أنْ راجع ما قضيت به وآسِ بين الخصوم في مجلسك، فلو أتيح ذلك لابن الجهم لعلا خصومه بالبرهان والبيان، وهذا حِجاجٌ يدلّ على اعتزاز الشاعر بنفسه، يقول[52]:

أَمِنَ السَـوِيَّـةِ يـابنَ عَمِّ مُحَمَّـدٍ خَصـمٌ تُـقَـرِّبُـهُ وَآخَـرُ تُـبـعِـدُ؟!
إِنَّ الَّـذينَ سَـعَوا إِلَيـكَ بِبـاطِـلٍ أَعـداءُ نِـعـمَـتِـكَ الَّـتي لا تُـجـحَـدُ
شَـهِـدوا وَغِبنـا عَنهُمُ فَتَحَكَّموا فينـا وَلَيسَ كَغـائِـبٍ مَن يَشـهَـدُ
لَو يَجمَعُ الخَصـمَينِ عِندَكَ مَشـهَدٌ يَومـاً لَبـانَ لَـكَ الطَريقُ الأَقصَـدُ
فَلَئِن بَقيـتُ عَلى الزَّمـانِ وَكـانَ لي يَومـاً مِنَ المَلِـكِ الخَليفَـةِ مَقعَـدُ
وَاحتَجَّ خَصمي وَاحتَجَجتُ بِحُجَّتي لَفَلَجتُ في حُجَجي وَخابَ الأَبعَدُ

إذ نـرى في البيـت الأخـير إصرار الشـاعر عـلى محاججـة خصـومه، ولكنـه مـع هـذه الثقـة العاليـة بفعلتـه لا يلبـث أن يتـدرج في شـعره نحـو الاعتـذار، محـاولاً أن ينـتزع بـه عطـف الخليفـة وينتشل عقله من ظلمات الغي والتيه، حين.

(51) الديوان، ص46.
(52) الديوان، ص46-47.

يُعْلِمُهُ أنّ الذين وشوا به هم خصوم الخليفة أيضاً وهم بطانته الذين أبطنوا غلّهم عليه، وهو بذلك يشير من طرفٍ خفيٍّ إلى ما يجري في الأوساط السياسيّة من دسائس ومؤامرات.

ويسلّي ابن الجهم نفسه برفع شِكايته إلى الله، فهو الذي قدّر ذلك، وإليه المنشر والمحشر، يحكم بين الناس بالقسط، وعزاء الشاعر أنّه إن مات في حبسه فلن يبقى الذي وشى به، وعجباً للخليفة بأي جريرةٍ يجعل من سمعة الشاعر غرضاً يرميه به الأذلاء الحاقدون! يقول[53]:

وَاللهُ بـالِـغُ أَمـرِهِ في خَـلـقِـهِ   وَإِلَـيـهِ مَصــــدَرُنـا غَـداً وَالـمَـورِدُ
وَلَئِن مَضَــيـتُ لَقَلَّمـا يَبقى الـذي   قَـد كـادَني وَلَـيَـجـمَـعَـنّـا الـمَـوعِـدُ
فَبِأَيِّ ذَنبٍ أَصــبَحَت أَعراضُــنـا   نَهبـاً يُشــيـدُ بِهـا اللَئيمُ الأَوغَـدُ؟!

وقد راحت نفسه أو عاذلته تعاتبه على سجنه ومواقفه، لكنه لا يلبث أن يستذكر ثباته ومواقفه فيطلب إليها أن تخفف لومها عنه، فهو لم يأت ذنباً يستوجب ما تلومه به، يقول مخاطباً إياها[54]:

أَقِلّي فَإِنَّ اللَّومَ أَشــكَلَ واضِــحُـهْ   وَكَم مِن نَصــيحٍ لا تُمَلُّ نَصــائِحُهْ
عَلامَ قَعَـدتِ القُرفُصى_ تَعـذُلينَني   كَـأَنِّيَ جـانٍ كُـلَّ ذَنـبٍ وَجـارِحُـهْ
أَعَـاذِلَ لَـم أَجـرَح كَـرِيمـاً وَلَـمَّ أَلُـم   لَئيماً وَبَعضُ الشَّرِّ_ يَجمَحُ جامِحُهْ

وهو يمضي على هذا النحو يفتخر بشجاعته وحزمه وغنى نفسه وصبره على نائبات الدهر، ويسرد طرفاً من جوده وإغاثته الملهوف، لقد كان سيّد المجالس وأهلها، وكان مقداماً في الحرب، يطعم الجياع ويكسو العراة، فهو ربّ الندى وسِمام العدى وغيظ الحسود.

واللافت للنظر في هذه القصيدة أنّه قصرها على الافتخار بفعاله، والفخر ضربٌ من إثبات الذات والتحدي، فلم يذكر المتوكل كما كان يفعل، ولم ينصح له، وهذا يؤكد أنّ موقفه منه قد تغير، يقول[55]:

أَضــاقَـت عَلَيَّ الأَرضُ أَم لَســتُ واثِقـاً   بِـحَـزمٍ تُـغـاديـهِ الـقَـنـا وَتُـراوِحُـهْ
مَـتى هـانَ حُـرٌّ لَـم يُـرِق مـاءَ وَجـهِـهِ   وَلَـم تُـخـتَـبَر يَـومـاً بِـرَدٍّ صَــفـائِحُـهْ
سَـــأَصــبِرُ حَـتّى يَـعـلَـمَ الصَّــبرُ أَنَّـني   أَخـوهُ الَّـذي تُـطـوى عَـلَـيـهِ جَـوانِـحُـهْ

(53) الديوان، ص47.
(54) الديوان، ص64-66.
(55) الديوان، ص65-66.

وَأَقـبَـلُ مَـيســـورَ الـزَمـانِ وَإِنَّـمـا أَرى العَيشَ مَقصـــوراً على مَن يُســامِحُهْ
فَـأَخـلِـصُ مَـدحي لِـلَّـذي إِن دَعَـوتُـهُ أَجـابَ وَإِلّا أَســـعَـدتَـني مَـدائِـحُـهْ
هَـلِ الـعَـيشُ إِلّا الـعِـزُّ وَالأَمـنُ وَالـغِـنى غِنى النَفسِ وَالمَغبوطُ مَن ذَلَّ كاشِـحُهْ
وَمِـن هِـمَـمِ الـفِـتـيـانِ تَـفـريـجُ كُـربَـةٍ وَإِطـلاقُ عـانٍ بـاتَ وَالـبُـؤسُ فـادِحُـهْ

بل يبدو من خلالها أنّه يوجه الخطاب مبطّناً إلى الخليفة، من أنّه مهما ضاقت به الأرض، فلن يذلّ ولن يهون، وسيبقى متجلداً، كعهده، لريب الدهر، وهو هنا يريد أن يقصر مدحه عمّن إذا استغاث به أغاثه وفك كربته، وكأنّه يستخسر بالمتوكل ما كان يمدحه به، إذ لم تشفع له أياديه البيضاء عنده، فلم يغثه ولم يطلق سراحه.

ويختم ذلك بتوجيه رسالةٍ إلى أعدائه ألا يفرحوا بما حلّ به، فكم من خصمٍ ألدّ للشاعر يقرع أسنانه عليه فيُسمع صريفُها، ويحترق حقداً وغيظاً كما يستقدح القادحُ النارَ من أعوادها فتشتعل، والشاعر بسَجنه كعود يُحرَق لينشر طيبه، وهذا معنًى آخر لطيفٌ في تحسين حبسه:[56]

وَكَم مِن عَـدُوٍّ بـاتَ يَحرُقُ نـابَـهُ عَلَيَّ كَما يَســتَقدِحُ المَرخَ قـادِحُـهْ
فَلا يَشـــمَتَن قَومٌ أَصـــابوا بِمَكرِهِم عَلَيَّ سَـــبيلاً أَغلَقَتها مَســـالِحُـهْ
وَلا ذَنـبَ لِـلعـودِ الـذِّمـارِيِّ إِنَّـمـا يُحَرَّقُ مَن دَلَّـت عَلَـيـهِ رَوائِحُـهْ
وَمـا الـمَـكـرُ إِلّا لِـلـنِّســـاءِ وَإِنَّـمـا عَدُوُّكَ مَن يُشـجيكَ حَتّى تُصـالِحُهْ

وانظر إليه كيف يسقط طباع النساء على خصومه، إذ غدروا به وحبسوه وأحزنوه حتى ينزل على حكمهم ويصالحهم، دأبهم دأب النسوة اللواتي يمكرن بالفتى وهنّ يبغين وصاله.

ولما صادر المتوكل أموال شاعرنا ونفاه إلى خراسان، وأمر واليها طاهر بن عبد الله بصلبه إلى الليل عارياً ظل يرسل شعره بمثل هذه الروح العالية، ويستهزئ بجلاديه، إذ إنّهم غداة صلبه لم يصلبوا غرّاً لا قيمة، بل صلبوا رجلاً تهابه الناس، وهو في رفعه على خشبة الصلب إنّما ازداد رفعةً وازداد خصومه ذلاً، ويستحضر الشاعر هنا مرةً أخرى تلك الصور التي يريد أن يثبت من خلالها أنّه باقٍ على أصله على الرغم من الشدائد والمحن، فهو كالليث الذي غادر عرينه ليُحمل على الأعناق إجلالاً وتكرمةً، وهو كالسيف لا يخيف الأعداء إلا إذا جرّد من غمده، وهو كالبدر حين تمام استدارته واكتمال حجمه يألفه السمّار ولا يأنفون منه، ويشير

[56] الديوان، ص66.

الشاعر إلى جوده وكرمه حين يعلم خصومه أنّ الخاسر من مصادرة أمواله إنما هم ضيوفه ونزلاؤه الذين يغدق عليهم من عطاياه،

ولئن حبسه أعداؤه وأغلقوا دونه المصاريع فلن يستطيعوا حبس شعره الذي سيظل يكويهم بسياطه، وكل ذلك يشير إلى ضراوة المعركة السياسيّة بين الخصوم آنذاك، يقول ابن الجهم عندما صلبه طاهر بن عبد الله[57]:

لَم يَنصِبوا بِالشاذِياخِ صَبيحَة [58] الـ ... إِثنَينِ[59] مَغموراً وَلا مَجهولا

نَصَبوا بَحَمدِ اللَهِ مِلءَ عُيونِهِم ... شَرَفاً وَمِلءَ صُدورِهِم تَبجيلا

ما ازدادَ إِلّا رِفعَةً بِنُكولِهِ ... وَازدادَتِ الأَعداءُ عَنهُ نُكولا

هَل كانَ إِلّا اللَيثَ فارَقَ غيلَهُ ... فَرَأَيتَهُ في مَحمَلٍ مَحمولا

لا يَأمَنُ الأَعداءُ مِن شَدّاتِهِ ... شَدّاً يُفَصِّلُ هامَهُم تَفصيلا

ما عابَهُ أَن بُزَّ عَنهُ لِباسُهُ ... فَالسَيفُ أَهوَلُ ما يُرى مَسلولا

إِن يُبتَذَل فَالبَدرُ لا يُزري بِهِ ... أَن كانَ لَيلَةَ تِمِّهِ مَبذولا

أَو يَسلُبوهُ المالَ يُحزِنُ فَقدُهُ ... ضَيفاً أَلَمَّ وَطارِقاً وَنَزيلا

أَو يَحبِسوهُ فَلَيسَ يُحبَسُ سائِرٌ ... مِن شِعرِهِ يَدَعُ العَزيزَ ذَليلا

وهذا التشامخ والإغراق في تجميل الحبس من تجليات التحدي للخصوم، وهي ردّةُ فعلٍ لشاعر لم يكن يخطر بباله أن يلقيه خليفته في غياهب السجون ويأمر بصلبه، ولذا يصبر نفسه بإيمانه، ويرى أنّ كلّ مصيبة لا تكون في دينه فهي نعمٌ ترتفع بها درجته، ويفوض أمره إلى الله وكفى به ناصراً، ثم يعود إلى مخاطبة خصومه السياسيّين والنكاية بهم، فهم، وإن جرَّدوه من ثيابه وعذبوه وأهانوه وصادروا أمواله، لن يستطيعوا أن يسلبوا منه دينه ويقينه وسلاحه الشعري الذي يفضح به كيدهم، ولو أنّهم وجدوا عليه جرماً لحقَّ لهم أن يفضحوه ويهينوه، لكنّهم، مع ظلمهم له، لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه شيئاً مخلّاً بالأخلاق والآداب، ويا عجباً لدهره كيف رماه بالأرزاء وهو الذي كان يعين على نوائبه ؟! يقول[60]:

---

[57] تكملة الديوان، ص 171- 173.

[58] رواية الأغاني عشيّةَ، وهي أقرب إلى قصة صلبه ليلاً، 166/10، وقد ذكرها محقق الديوان في التكملة، ص215.

[59] قطعت همزة الوصل للضرورة الشعرية، لأنّ البيت مدوّر، من أجل أن يبدأ العجز بمتحرك.

[60] تكملة الديوان، ص173-174.

إنَّ المَصـــايِـبَ مـا تَعَـدَّت دينَـهُ ... نِعَمٌ وَإِن صَـــعُبَـت عَلَيـهِ قَليلا

وَاللهُ لَـيـسَ بِـغـافِـلٍ عَـن أَمـرِهِ ... وَكَــفى بِـــرَبِّـكَ نــاصِراً وَوَكـيــلا

لَن تَســلُبوهُ -وَإِن سَــلَبتُم كُلَّ ما ... خَـوَّلـتُـمـوهُ- وَســـامَـةً وَقَـبـولا

هَـل تَـملِـكـونَ لِـديـنِـهِ وَيَـقيـنِـهِ ... وَجَــنـانِـهِ وَبَـيـانِـهِ تَـبـديـلا

لَم تَنقُصـــوهُ وَقَـد مَلَكتُم ظُلمَـهُ ... مـا الـنَّـقـصُ إِلّا أَن يَـكـونَ جَـهـولا

كـادَت تَـكونُ مُصــيبَـةً لَـو أَنَّـكُم ... أَوضَـــحـتُمُ ذَنبـاً عَـلَيـهِ جَـليلا

إن كـانَ سَــفَّ إِلى الـدَنيئَـةِ أَو رَأى ... غَـيرَ الـجَـمـيـلِ مِـن الأُمورِ جَـمـيلا

لَـو تَـنصِـــفُ الأَيّـامُ لَـم تَـعـثُر بِـهِ ... إذ كـانَ مِــن عَـثَرَاتِـهِـنَّ مُـقـيـلا

ثم يختم برسالة يخاطب بها المتوكل الذي طالما حذره من بطانته، فلو رفعت الحجب عمّا يضمرونه في صدروهم لبان له حقد هؤلاء وكيدهم عليه، يقول(61):

وَلَتَعلَمُنَّ إذا القُلوبُ تَكَشَّـــفَـت ... عَنهـا الأَكِنَّـةُ مَن أَضَــــلُّ سَــبيلا

ومع أنّ ابن الجهم مدح طاهر بن عبد الله لمّا رثى أباه، إلا أنّه يبدو أن طاهراً كان ينتظر سقوط الشاعر لينال بثأره منه، ذلك أن ابن الجهم طلب وساطة الطاهريّين عند المتوكل ليخرج من حبسه الأول، فلما أحسّ أنّهم لا يهمّهم أمره سمّاهم عند المتوكل رافضةً(62)، وكأنّما يريد أن يغريه بهم، وهذه هي الزلّة التي أسرها طاهر لابن الجهم، ولذلك لا يأبه له حين يرسل إليه من سجنه في الشاذياخ شعراً يستعطفه به، يقول فيه(63):

إن كـانَ لي ذَنـبٌ فَـلي حُـرمَـةٌ ... وَالحَـــقُّ لا يَـــــدفَعُهُ الباطِلُ

وَحُــرمَــتــي أَعــظَــمُ مِــن زَلَّتي ... لَـو نـالَـني مِـن عَـدلِـكُم نـائِـلُ

وَلي حُــقــوقٌ غَــيــرُ مَــجــهولَةٍ ... يَـــعــــرِفُها العاقِلُ وَالجاهِلُ

وَكُـــلُّ إِنــســـانٍ لَهُ مَــذهَـــبٌ ... وَأَهــــلُ مــــا يَـــفــــعَلُهُ الفاعِلُ

وَســـيــــرَةُ الأَمــــلاكِ مَــــنقولَةٌ ... لا جــــائِرٌ يَـــخفى وَلا عـادِلُ

(61) تكملة الديوان، ص174.
(62) ينظر العصر العبّاسيّ الثاني، شوقي ضيف، ص 265.
(63) تكملة الديوان، ص 169.

وَقَـد تَـعَـجَّلـتَ الذي خِـفـتُهُ   مِـــنــكَ وَلَم يَــأتِ الَّذي آمُـــلُ

وتختلف النبرة هنا عن قصيدته السابقة التي غلب عليها الترفع والاستعلاء بينما ساد هنا الهدوء والعقل والمنطق، وشيءٌ من الإقرار بالذنب، "ولكن الزلة في رأي طاهر كانت أكبر من الحرمة، فلم يأبه باستعطافه، حتّى أمره المتوكل بردّ حريته إليه، حينئذ خشي معرّة لسانه، فقرّبه منه وجعله من ندمائه وجلسائه"[64]، وأخرجه معه إلى الصيد.

ويبدو أن فترة سجنه قد شحنته بتجارب في الحياة وجعلته ينطق الحكمة، وهي حكمة عمليّةٌ صدرت عن نفس خبيرةٍ بالسياسة، تمرَّسَت بالآفات، يتأسّى ابن الجهم بها ولا يدّخر جهداً في النصح للخليفة من خلالها، حيث راح يبدأ قصائده بالحكمة ويبثها في ثناياها أو يختم بها، صادراً فيها عن ثقافته الدينية، مُصبّرًاً نفسه على قضاء الدهر وقدره، وهنا يبدأ بمطلع حكمي يوجهه إلى المتوكل، فالدنيا لا تصفو لأحدٍ، وهي تعمل في الإنسان وهو في غفلةٍ عمّا يُراد به، ولا يبقى للمرء في حياته إلا الذكر الحسن، فلا يغترنَّ أحدٌ بما يفعل ولا يؤملنّ شيئاً فإنَّ المنايا تترصّد للفتى، فكم أفنت أجيالاً وغيّبت آخرين، يقول[65]:

لِــلــدَّهــرِ إدبــارٌ وَإقــبــالُ   وَكُـلُّ حــالٍ بَـعـدَهـا حــالُ

وَصــاحِـبُ الأَيّـامِ في غَـفـلَـةٍ   وَلَـيـسَ لِـلأَيّـامِ إغــفــالُ

وَالـمَـرءُ مَـنســوبٌ إلى فِـعـلِهِ   وَالــنـاسُ أَخــبــارٌ وَأَمــثــالُ

يـا أَيُّـهـا الـمُـطـلِـقُ آمـالَـهُ   مِــن دونِ آمــالِــكَ آجــالُ

كَم أَبلَـتِ الـدُنـيـا وَكَم جَـدَّدَت   مِـنّـا وَكَـم تُـبـلي وَتَـغـتـالُ

بَـلِّـغ أَمـيرَ الـمُـؤمِـنـينَ الـذي   لَـم آلُـهُ نُصــحـاً وَلا آلــو

وكأنّه يدعو الخليفة إلى الاعتبار والتفكر فيما فعله به، وينبهه أنّ السلطان مستعار والأيام معقبات، فهل هي إشارةٌ إلى أنّ الخلافة ستتحوّل عنه؟ وهل المقصود بدعوته إلى أن يحسّن أعماله قبل أن تلقاه المنون، أن يطلق سراح الشاعر؟ هل هذا هو الثناء الحسن الذي يبقى للمرء بعد موته؟

ويبدو أنَّ ابن الجهم يتحرك في شعره كلِّه من التحدي، فهو هنا ينعت المتوكل بأمير المؤمنين، وهذه هي المرة الثالثة في سجنه، التي يخاطبه فيها بأمير المؤمنين، وليس بالخليفة، فلقب الخليفة يقتضي من

(64) العصر العبّاسيّ الثاني، شوقي ضيف، ص 265.

(65) الديوان، ص 68.

صاحبه أن يحقق معاني الخلافة من توّخٍ للعدل وإنصافٍ للرعية وحَذَرٍ من مكائد الخصوم، وغير ذلك من الصفات التي يجدر بالمتوكل أن يتحلى بها وتقوده إلى إطلاق سراح الشاعر، وحتّى إنّ ابن الجهم يوجّه الأمر لمخاطبه أن يبلّغ المتوكل نصحه له، وكأنّه أعلى يداً وأكثر خِبرةً من الخليفة نفسه، الذي يصوِّره أنّه لا ينتفع بنصحه الدائم له.

وممّا يؤكد تحدّيه أنّه، وإن حاول أن يُلين خطابه ويلتمس المعذرة من خليفته، لا يلبث أن يعود إلى الافتخار بنفسه وبشجاعته التي يقرُّ بها الأعداء، فهو الذي يصل ويقطع، وهو الذي لا تفلّ من عزمه الشدائد كما لا يغرّه المنصب والثراء، وكأنّي به يصحح للخليفة مفاهيمه، إنّه صاحب مبدأ على الرغم من الشدائد، ليس كخصومه الذين يميلون حيثما تميل بهم رياح السياسة، وبين هذا وذاك يوطن نفسه على السجن ويستحلي الصبر، فالصبر خير مُعينٍ يستعين به الحرُّ على ذلّ السجن وفقد حريته وغيابه عن أهله وخلّانه، يقول:(66)

مـا أَحسَـــنَ الصَـــبرَ وَلا سِـــيَّمـا   بِـالحُرِّ إِن ضـــاقَـت بِـهِ الحـالُ

يَشــــهَـدُ أَعـدائي بِـأَنّي فَـتًى   قَـطّـاعُ أَســـبـابٍ وَوَصّـــالُ

لا تَـمـلِـكُ الشِــدَّةُ عَـزمي وَلا   يُـبـطِـرُني جـاهٌ وَلا مـالُ

ويبدو أنّ هذه النصائح والمواعظ الطوال قد ذهبت أدراج الرياح ولم تجد سبيلها إلى قلب المتوكل، إذ لم يأبه لمناشداته، بل كان سمّاعاً لخصومه الذين ظلوا يؤلبونه على ابن الجهم ويُذْكون نار الضغينة والبغضاء في صدره، فطالت مدّة سجن الشاعر سنةً بل أكثر وتناساه خليفته، وهذا هو السبب الذي جعل ابن الجهم يبدِّل موقفه شيئاً فشيئاً، وبدأت تخفت نبرة ثباته، ففي ميميّة له يبدؤها بتصوير ضعفه، وكِبَر عمره، وأنه قارب الخمسين منها، واشتعل رأسه شيباً إنذاراً له بالموت، وقد أنكره الناس لإنكار الخليفة له، يأسى لقلة الصديق، مستعطفاً المتوكّل أن يطلق سراحه آملاً أن ينقشع الظلم والذلّ عنه، ونراه مرةً رابعةً لا ينعته بلقب الخلافة بل بأمير المؤمنين، وكأنّه يريد من ذلك أن ينبّهه إلى أنّ مثل هذه الأعمال لا تصدر عن خليفةٍ للمسلمين، يقول(67):

أَمـا وَأَمـيرِ المُـؤمِـنـينَ لَقَـد رَمى الـ   عَـدُوَّ فَلا نِكســـاً وَلا مُتَهَضِّـــمـا

(66) الديوان، ص68.

(67) الديوان، ص21.

وَلا ناسِــياً ما كانَ مِن حُســنِ رَأيِهِ ... لِخُطَّةِ خَســفٍ ســامَنيها مُحَتِّما

عُلوقاً بِأَســبابِ النَبِيِّ وَإِنَّما ... يُحِبُّ بَني العَبّاسِ مَن كانَ مُســلِما

لَعَلَّ بَني العَبّاسِ يَأســو كُلومَهُم ... فَيَجبُرُ مِنّي هاشِمٌ ما تَهَشَّما

فهو يرجو لجراح بني العباس أن تُداوى ليجبروا جناحه ويعيدوا بناء ما تهدّم منه، ويجعل من محبتهم شرطاً لإسلام المرء، وهذا يدلّ على أنّه لا يزال على عهده السياسيّ لهم، مع أنّ في حلقه غصةً من خليفتهم. ولأنّ عهد الحبس طال بالشاعر فلا يجد مناصاً من أن يمدح المتوكل ويسقط عليه الصفات المثلى، إذ يستهلّ إحدى قصائده بمطلع حكمي، وأنّه لابدّ للإنسان من توطين نفسه على نائبات الدهر التي تتعاقب عليه، فليس عاراً أن يسجن المرء وإنّما العار الحقيقي أن يضعف ويفقد شجاعته، يقول[68]:

هِيَ النَفسُ ما حَمَّلتَها تَتَحَمَّلُ ... وَلِلدَّهرِ أَيّامٌ تَجورُ وَتَعدِلُ

وَعاقِبَةُ الصَبرِ الجَميلِ جَميلَةٌ ... وَأَفضَلُ أَخلاقِ الرِجالِ التَفَضُّلُ

وَلا عارَ أَن زالَت عَنِ الحُرِّ نِعمَةٌ ... وَلَكِنَّ عاراً أَن يَزولَ التَجَمُّلُ

ثم يتابع في بثّ حكمه إلى أن يسترسل في مديح خليفته مضفياً عليه هالةً من القداسة، فهو خير خلق الله طراً وأقسطهم وأكثرهم إنصافاً وأصوبهم رأياً وأنداهم يداً وأحسنهم خُلُقاً وأكملهم خَلْقاً وأقربهم من دين الله عز وجل وسنة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، إلى غير ذلك من الأخلاق التي لا تجتمع إلا لشخصٍ آتاه الله الحكمة والنبوّة، والمتوكّل ليس بذاك من الرجال، إنّما للشاعر طالب الحاجة أن يغلو في ممدوحه ما شاء من دون حدٍّ أو قيدٍ، وكأنّما يريد أن يستلّ سخيمته ليطلق سراحه من غير أذى أو أن يلجئه إلى العفو، يقول[69]:

وَأَقوَمُ خَلقِ اللَهِ لِلَّهِ بِالَّذي ... يُحِبُّ وَيَرضى جَعفَرُ المُتَوَكِّلُ

أَبى اللَهُ إِلّا أَنَّهُ خَيرُ خَلقِهِ ... وَأَعدَلُهُم فيما يَقولُ وَيَفعَلُ

أَعادَ لَنا الإِسلامَ بَعدَ دُروسِهِ ... وَقامَ بِأَمرِ اللَهِ وَالأَمرُ مُهمَلُ

يُعاقِبُ تَأديباً وَيَعفو تَطَوُّلاً ... وَيَجزي عَلى الحُسنى وَيُعطي

وَلا يُتبِعُ المَعروفَ مَنّاً وَلا أَذًى ... وَلا البُخلُ مِن عاداتِهِ حينَ يُسأَلُ

---

[68] تكملة الديوان، ص162-163.

[69] الديوان، ص163-164.

رَعاكَ الَّذي اســتَرعاكَ أَمرَ عِبادِهِ وَكـافـاكَ عَنّـا المُنعِمُ المُتَفَضِّـــل

وإنّك لتعجب أن يُدْبِرَ المتوكّل عن الشاعر بعد هذه المدائح فلا يلقي بالاً لمناشداته وقد كان قبلاً نعم الشاعر والنديم والسمير، بل ويقابل ما كان من الشاعر من ودّ ونصرةٍ وإخلاصٍ بالعقوبة والنكران، وممّا يشي أنّه مقتنعاً بحبسه ما يروى أنّه كانت تعرض عليه قصيدةٌ لابن الجهم في وصف القصر الهاروني الذي بناه، فلما سمع قوله[70]:

وقـبـة مـلـكٍ كـأن الـنـجـو م تـفـضي إلـيـهـا بـأسرارهـا

...

تهلّل وجهه واستحسنها. فلما سمع قوله[71]:

تبوّأتُ بعـدكَ قعرَ الســجو نِ وقـد كـنـتُ أرثي لـزوارهـا

غضب وتربد وجهه وقال: هذا بما كسبت يداه[72].

ولذا بدأ الشاعر يلين في خطابه للخليفة، وراح يعتذر عن سابق كلامه، لكن نفسه المتعالية لم تسمح له بالاعتذار على نحوٍ صريحٍ كيلا يُجرَح كبرياؤه ويُبذل ماء وجهه، فالاعتذار- كما يرى- صعبٌ على نفس الحر الأبي، ولذا نراه يرجع سبب اعتذاره إلى الأقدار، فهي التي أجبرته على ذلك، وهو هنا يطلب من المتوكل أن يستعيذ ممّا يسببه السؤال والاعتذار من ذلّ وخنوعٍ لأهل العقول والنُّهى، يقول[73]:

إنّ ذلَّ الســؤال والإعـتـذار خُـطّـة صـعـبـة عـلى الأحـرار

لـيس جـهـلاً بـمـا تـورّدهـا الـحـ ـــر ولـكـن ســوابـق الأقـدار

فـارْضَ للســائل الخضــوع وللقا رف ذنبـاً مضــاضــة الاعتـذار

واســتعـذ منهمـا فبئس المقـامـا ن لأهـل الـعـقـول والأخـطـار

والإنسان إذا ما أراد أن ينقذ نفسه من مسؤولية أعماله، فإنّه ينسبها إلى يد القدر والظروف القاهرة، وهذا ما فعله ابن الجهم، حين صوّر أنّ اعتذاره خاضعٌ للأقدار.

[70] الديوان، ص29.
[71] الديوان، ص31.
[72] ينظر الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 186/10.
[73] تكملة الديوان، ص149.

وقد كان الشاعر قبل سجنه يوظِّف مفهوم القدر في إقناع الناس بخلافة المتوكل، وأنّها قدرٌ من الله لابدّ من التسليم به، وهو هنا "اتخذ فكرة القدر وسيلة لتبرير فعله، وإخفاء ضعفه أمام المحنة بعد ثباتٍ ومكابرةٍ، بغطاء دينيّ مقبول حسب التفسير الشائع لمفهوم القدر، فهو إذاً يحمل نفسه على قبول مضاضة الاعتذار وذلّ السؤال تسليماً بالقدر القاسي الذي دفعه دفعاً نحو ورود مورد الاعتذار والذل"[74].

وبعد ذلك يأمل من المتوكل أن يعفو عنه ولا يعاقبه أكثر من ذلك، حتّى إنّه يرى أن فقده لسمعه وبصره أهون عنده من أن يعاتب الخليفة على ما يفعل به، ويذكره بأصله وأجداده وشيمهم الفاضلة، فهم أبناء عمِّ النبيّ ﷺ، قد ورثوا العفو عند الاقتدار عنه، ويستطرد في وصف صفات الخليفة التي تناسب الموقف، فهو يتجافى عن عظائم الذنوب، وربّما يعني هذا أنّ ذنب ابن الجهم صغير بالقياس إلى ذلك، وإذا كان لابدّ من عقوبة الخليفة فهو أدرى بها، وهنا يذكر الخليفة بأنه أعرف بما شرعه الله عز وجلّ وبأحكامه، وفي هذا إيحاءٌ له بالحكم الجائر الذي صدر بحقه، ثم يستدرك أنّ العقاب من الخليفة هو وسام فخرٍ وشرفٍ، يقول[75]:

يـابنَ عـمّ النـبيّ أيسرُــ من عَتْبـ ـــــك فقدُ الأســماع والأبصــارِ

أنت من معشرٍـ لقد شرعوا العفـــ ـــــــو ولم يمنعوه عند اقتدارِ

إن تجـافَيْـتَ مُنْعِمـاً كنـت أوْلى مَنْ تجـافى عـن الـذنوب الكبـارِ

أو تُـعَـاقِـبْ فـأنـت أعـرف بـاللّـ ـــــه وليس العقـاب منـك بعـارِ

وكأن نفسه الأبية لا تسمح له أن يعتذر، حتّى وإن عوقب، مخافة أن يسجّل ذلك عليه، ولذلك يصوِّر أنّ العقاب ليس عاراً، لأنّه صادرٌ من الخليفة.

ويبدو أنّ المتوكل مرّة أخرى على الرغم من هذا الاعتذار لم يلق له بالاً، وأيقن ابن الجهم أنْ لا سبيل إلى حريته إلا بالنزول من علياء كبريائه وتنازله أكثر في خطابه، ولذلك نراه يقرّ بما جنته يداه، ويطلب بانكسار العفو الصريح من الخليفة، واقتران الاستعطاف بالاعتراف بالذنب مدخلٌ نفسيٌّ إلى قلب

---

[74] الصورة الفنية في شعر علي بن الجهم، عبد السلام الراغب، ص130.
[75] تكملة الديوان، ص150.

الخليفة أو الحاكم، يشير فيه الشاعر إلى قدرة الخليفة وقوته، وإلى ضعف الشاعر وحاجته، محاولاً أن يرضي في الخليفة ما تثيره كرسي الحكم في الإنسان[76]، يقول[77]:

عَـفـا اللهُ عَـنـكَ أَلا حُـرمَـةٌ تَـعـوذُ بِـعَـفـوِكَ أَن أَبـعَـدا

لَـئِن جَـلَّ ذَنـبٌ وَلَـم أَعـتَـمِـدهُ فَـأَنـتَ أَجَـلُّ وَأَعـلى يَـدا

أَلَـم تَـرَ عَـبـداً عَـدا طَـورَهُ وَمَـولًى عَـفـا وَرَشـيـداً هَـدى

وَمُـفسِـدَ أَمـرٍ تَـلافَـيـتَـهُ فَـعـادَ فَـأَصـلَـحَ مـا أَفسَـدا

والظاهر أنّ صبره على عذاب السجن نفد، إذ براه البلى وأوهن رجليه ثقل القيود التي كان يزهو بها، فهو يتذلل وينكسر أمام الخليفة، مقراً بذنبه وكأننا هنا أمام شاعرٍ آخر يختلف عن ذاك الذي كان السجن عنده نِعْمَ المنزل، وكان يشبه نفسه بالليث والسيف والبدر... إلخ، وغير ذلك من صور الثبات والتحدي، التي لم تكن سوى أدوات احتجاج طريفٍ، فالواقع مهما زُيِّنَ لا تتغير حقيقته، وإلا فأين ذاك الذي تسري روح العزة والأنفة في شعره؟ لم نجدها بعد طول السجن وعدم استماع الخليفة لمناشداته، وهنا كان لابدّ له من اتباع أسلوب آخر يقر فيه بالذنب، ولذا نراه يطلب العفو الصريح، ويسأل الخليفة: أن فرّج كربتي فرّج الله عنك، وهو وإن كان ذنبه قد عظم فإنّ عفو الخليفة أعظم، ويصوّر ابن الجهم نفسه بالعبد الذي تجاوز حدوده وهو محتاجٌ إلى عفو مولاه الحليم الرشيد، ولا يخفى ما في صورة العبد من ذلٍّ ومهانة، كما يصور ذاته بالشخص الذي أفسد أمراً ما فأعطاه الخليفة مجالاً كي يصلح ما أفسده، وها هو يتوسّل إلى الخليفة أن أقلْ عثرتي واعف عني أقال الله عثراتك وعفا عنك، يقول[78]:

أَقِـلـني أَقـالَـكَ مَـن لَـم يَـزَل يَـقـيـكَ وَيَصرِفُ عَـنـكَ الـرَّدى

وَيُـنـجـيـكَ مِـن غَـمَـراتِ الـهُـمـومِ وَوِردِكَ أَصـعَـبَـهـا مَـوردِا

ثم يذكّره بنعم الله عليه ورعايته له مذ هو في المهد فالطفولة فالشباب إلى أن أعلى ذكره بين الأنام فجعله خليفتهم، وقرن محبته بعبادته، وهذا غلوٌ في مديحه كي يستثير حميته ويستدر عطفه، يقول[79]:

وَيَغـذوكَ بِـالنِّعَـمِ السـابِغـاتِ وَلَـيـداً وَذا مَـيـعَـةٍ أَمـرَدا

---

[76] يُنظر بحث "شعراء عباسيون في غياهب السجون"، د. محمد حسين عبد الرحيم السماعنة، ص139.

[77] الديوان، ص77.

[78] الديوان، ص 78.

[79] الديوان، ص78.

وَتَـجـري مُـقـاديـرُهُ بِـالـذي تُـحِـبُّ إِلى أَن بَـلَـغـتَ الـمَـدى
فَـلَـمّـا كَـمَـلـتَ لِـمـيـقـاتِـهِ وَقَـلَّـدَكَ الأَمـرَ إِذ قَـلَّـدا
قَضى ـ أَن تُرى سَـيِّدَ المُسـلِمينَ وَأَلّا يُـرى غَـيرُكَ السَّـيِّـدا
وَأَعـلاكَ حَـتّى لَـو اَنَّ السَّـمـاءِ تُـنـالُ لَـجـاوَزتَـهـا مُصـعِـدا
وَلَـم يَـرضَ مِـن خَـلـقِـهِ أَجـمَـعـيـ ـنَ أَلّا تُـحَـبَّ وَلا يُـعبَـدا

ويتابع الشاعر في غلوّه السياسيّ، فيلغي الحجب بين المتوكل والله عز وجل، إذ لا يفصل المتوكل عن الله جل جلاله إلا نبيه ﷺ، والمتوكل يحيي هدي النبي ﷺ ويقتفي أثره، وهذا يستوجب الشكر على هذه النعم كي تدوم، وكأنّ الشكر عند الشاعر يتمثل في إطلاق سراحه، يقول[80]:

فَـمـا بَـينَ رَبِّـكَ جَـلَّ اسـمُـهُ وَبَـيـنَـكَ إِلّا نَـبِـيُّ الـهُـدى
وَأَنـتَ بِسُـنَّـتِـهِ مُـقـتَـدٍ فَـفـيـهـا نَـجـاتُـكَ مِـنـهُ غَـدا
فَشُـكـراً لِأَنـعُـمِـهِ إِنَّـهُ إِذا شُـكِـرَت نِـعـمَـةٌ جَـدَّدا

والشاعر هنا يركّز على الصفات التي كان يمدح بها الخليفة قبل السجن، وقد تجاهلها في أولى قصائده الحبسيّة، حيث راح يعلي من ذاته وتناسى خليفته، ولكنه هنا يعود إليها، فالمتوكل يسير على هدي النبيّ ﷺ في نصرة سنته.

ويقرُّ ابن الجهم مجدَّداً بذنبه خاضعاً لخليفته، ويطلب العفو عنه، ويصور حالة القلق والرعب التي تحوطه وهو في سجنه فلا يجد النوم لعينيه سبيلاً، ويذكّره بأفضاله على رعيته، كما يذكّره بأنّه "عبدٌ" له بما تحمله هذه اللفظة من ذلٍّ وخضوع، يقول[81]:

وَعَـفـوَكَ عَـن مُـذنِـبٍ خـاضِـعٍ قَـرَنـتَ الـمُـقـيـمَ بِـهِ الـمُـقـعِـدا
إِذا ادَّرَعَ الـلَّـيـلَ أَفضى ـ بِـهِ إِلى الصُّـبحِ مِن قَـبـلِ أَن يَـرقُـدا
تَـجِـلُّ أَيـاديـكَ أَن تُـجـحَـدا وَمـا خَـيرُ عَـبـدِكَ أَن يُـفـسِـدا

"وهنا يلجأ الشاعر إلى تصوير معاناته الشديدة، إذ منعه ألمه ولومه لنفسه من الرقاد ليلاً، وهذا فيه تعبيرٌ عن سهره وقلقه واضطرابه، فهو بين ألم السجن وأمل العفو، والتعبير بـ "ادَّرَع" تعبيرٌ موحٍ عن حالته النفسية، إذ إنّ الليل درعٌ يقي صاحبه ويفضي به إلى السكينة والراحة، لكن ليل الشاعر يختلف عن ذلك

[80] الديوان، ص78-79.
[81] الديوان، ص79.

فهو مصدر قلقه وخوفه واضطرابه، كما أنّ صورة الدرع توحي بشاعرٍ فارسٍ عرف بشجاعته وقوته ثم آل إلى هذا الضعف بعد هذه المحنة"[82].

ويذكّره بمقامه بين يديه، فهذا الشاعر الفارس كان إذا أنشد شعراً في مجلس الخليفة أقرّ عينه وملأ صدور أعدائه غيظاً، ومن واجب الخليفة أن يحفظ هذه الثمرة التي هي نتاج جوده وعطائه، يقول[83]:

أَلَـيسَ الَّـذي كـانَ يُـرضي الـوَلِيَّ وَيُشـــجي الـعَـدُوَّ إِذا أَنشَـــدا

فَصُـــن نِـعـمَـةً أَنـتَ أَنـعَـمـتَـهـا وَشُـــكـراً غَـدا غـائِـراً مُـنـجِـدا

ثم يضع نفسه تحت تصرف خليفته، معلناً توبته، آخذاً على نفسه ألا يعود لمثلها أبداً إلى أن يوارى في التراب دفيناً، وإن نكث عهده فإنّه يخون الصحبة والمودة، يقول[84]:

وَلا عُـدتُ أَعصـــيـكَ فيمـا أَمَرتَ بِـهِ أَو أُرى في الـثَّرى مُـلـحَـدا

وَإِلّا فَـخـالَـفـتُ رَبَّ السَّـــمـاءِ وَخُنـتُ الصَّـــديقَ وَعِفـتُ النَّدى

وبهذا يكون ابن الجهم قد استدار كلياً في خطابه مع خليفته، وكأنّه كُتِبَ عليه ما روي أنّه كُتِبَ على باب أحد السجون: تنزو ثم سوف تلين[85]، إذ أقرّ بعد رفضٍ، وسمحت نفسه بعد أنفة وشموخ، وله العذر في ذلك، إذ طال عليه الأمد ولا يعلم متى تنتهي محكوميته حتى يصبر لميعادها.

وبعدُ فإن الدارس لحبسيّات عليّ بن الجهم يرى أنَّ الشاعر لم يُشِرْ إلى مدّة حبسه وطوله، وأنّه قد غاب عن هذه الحبسيّات تصوير الجزع من الموت، والخوف على ذريته من بعده والاستشفاع بصغاره ليُخْلَى سلبيه مثل غيره من الشعراء، كما غاب عنها تصوير مجتمع السجن ومعاناة السجين وعذابه النفسي وتعذيبه الجسدي، والحديث عن معاملة السجّانين التي طالما اشتكى منها الشعراء السجناء، وهذا يرجّح ما أورده الباحث من أنّ سجنه كان من نوع خاصٍّ، وأنّ الخليفة يحتفظ له بمكانته ويريد تأديبه لا إهانته، بيد أنّ هناك قصيدة مشهورة في هذا الباب وردت في ديوانه، وقد نسبها محققو الشعر ونقّاد الأدب – كلّها أو أبياتاً

---

(82) الصورة الفنية في شعر علي بن الجهم، عبد السلام الراغب، ص135.

(83) الديوان، ص79.

(84) الديوان، ص79.

(85) روى ابن قتيبة في عيون الأخبار أنه رئي مكتوباً على باب حبسٍ "تنزو وتلين"، فضربه الناس مثلاً، ومنه قول أحد الأعراب لما حبس:
وفي الباب مكتوب على صفحاته بأنّك تنزو ثمّ سوف تلين
ومعنى تنزو من النَّزْو، أي تَثِبُ وتنشط وترفض، ومعنى تلين أي تضعف وتخضع وتستسلم. ينظر الخبر والشعر في عيون الأخبار، 149/1.

منها- إلى غير شاعرٍ في العصر العبّاسيّ، وقد اختلف عدد الأبيات المنسوبة إلى كلٍّ منهم، ولذلك أوردها بعض أهل العلم من دون عزو لأحدٍ[86].

لكنّ هذا لا يمنعُ من الوقوف عندها طالما أنّها قيلت من شعراء أصابتهم محنة السجن وتشابهت أحوالهم وأوضاعهم، فربما يكون ذلك من قبيل الاشتراك في التعبير عن المعاني أو تداولها، خاصةً أن من نسبت إليهم جَمَعَهم زمن متقارب، ويمكن أن نفهم هذا الخلط بينهم حين نأخذ بالحسبان طريقة رواية الشعر وتدوينه في ذلك العصر.

وتصور القصيدة أحوال السجين وأمله بالله أن يفرج عنه، فقد انقطع في سجنه عن الدنيا وهو فيها، وكأنّ الشاعر يشبّه في ذلك المساجين بالموتى والسجن بالقبر، وهو موفقٌ في هذا إلى حدٍّ ما، لأنّ السجن ضيّق المساحة كالقبر، وهو مظنّة الموت، أضف إلى ذلك أنّ كليهما مظلم، تحل فيهما البلوى على المذنب المقصِّر، مع الفارق بين صاحب الأمر في الحالين، إذ لا نسب ولا خلة هناك، تقول القصيدة[87]:

إلى الله فيما نابَنا نرفعُ الشكوى ... ففي يده كشفُ الضرورة والبلوى

خَرَجْنا من الدُّنيا ونحنُ من آهلها ... فَلَسنا مِنَ الأَحياءِ فيها وَلا المَوتى

إِذا جاءَنا السَجّانُ يَوماً لِحاجَةٍ ... عَجِبنا وَقُلنا جاءَ هذا مِنَ الدُنيا!

وَنَفرَحُ بِالرُؤيا فَجُلُّ حَديثِنا ... إِذا نَحنُ أَصبَحنا الحَديثُ عَنِ الرُؤيا

فَإِن حَسُنَت لَم تَأتِ عَجلى وَأَبطَأَت ... وَإِن قَبُحَت لَم تَحتَبِس وَأَتَت عَجلى

وتبرز في الأبيات علاقة السجان بمسجونيه، وهذه العلاقة غالباً ما تكون علاقة هيمنةٍ وقهرٍ وإذلالٍ، يقدّم السجّان من خلالها للسجناء ما يحتاجونه، وقد تكون هذه الحاجة ما يبقيهم على قيد الحياة، كما يظهر فيها فرح السجناء برؤية من يزورهم.

---

(86) أورد ابن خَلِّكان في وفيات الأعيان ما يدل على هذا الاضطراب في نسبتها، فقال وهو يتحدث عن سجن الفضل بن يحيى البرمكي: "كان الفضل ينشد وهو في السجن هذه الأبيات، وأظنها لأبي العتاهية، ثم وجدتها لصالح بن عبد القدوس من جملة أبيات قالها وهو محبوس، وقيل إنها لعلي بن الخليل، وكان هو وصالح المذكور يُتَّهمان بالزندقة، فحبسهما الخليفة المهدي بن المنصور" ثم ذكر الأبيات. ينظر وفيات الأعيان، 4/ 34.

وهناك من نسبها إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كما في المحاسن والأضداد، ص37- 38.

والغريب أنّ أحداً من القدماء لم ينسبها إلى علي بن الجهم، وحتى محقق الديوان لم يذكر أحداً نسبها إليه!

(87) الديوان، ص96.

وعلى العموم فهذه الأبيات "تدخلنا إلى أجواء السجن الغريبة، وإلى دنياه المبهمة، وإلى أوهام ساكنيه، وإلى مشاعرهم الذاهلة، وتفتح لنا منافذ من الرؤى لنستشفّ ما وراء هذا العالم الغامض المنزوي، فإذا العبارات تقفنا على شفا تلك المشاهد الغريبة: (عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا)، وتقرّبنا من تلك النفوس التي اتّخذت لنفسها منحًى خاصّاً من المنطق والتفكير"[88]، وذلك في تكرار حديثهم عن الرؤيا، ولذلك لا غرابة حين أقرّ أهل الأدب والعلم بالشعر أنّها من أحسن ما قيل في مجالها[89].

ولهذه المعاني التي تحملها الأبيات السابقة يرى الباحث أنّه من الصواب نسبتها إلى غير عليّ بن الجهم، وقد بدا من أشعاره أن سجنه كان من نوعٍ خاصٍ، بينما هي تصور سجناً جماعياً وتطفح بالاسترحام والرجاء، ونحن لم نعثر في شعره على أبياتٍ أخرى يصف فيها السجن وعذابه تدعم نسبتها إليه بل وجدنا عكس ذلك، وجدنا أنفةً وفخراً بالسجن وزهواً بالسلاسل والأغلال وصبراً على صروف الدهر، وهذا يؤكد أنّ المتوكل على الرغم من سخطه عليه لا تزال نفسه تحتفظ للشاعر بمكانته، فهو ليس معارضاً للحكم أو ثائراً على الخليفة حتّى يسام العذاب في سجنه، بل هو من شعراء الدولة العبّاسيّة في زمنه، زلّت به أفعاله، ويريد الخليفة تأديبه بحبسه، ولو كان يريد إهانته وتعذيبه لأمر بذلك كما أمر بصلبه ذات مرةٍ عارياً إلى الليل.

وابن الجهم ذاته يدرك هذا الأمر، ولكنّ كبرياءه منعه من الإقرار بذنبٍ رآه الخليفة جرماً، وربّما كان يعوّل على ما بينهما من صحبةٍ وخُلّةٍ، ونسي أنّ السلطان لا صاحب له، ولعلّه يدرك أنّ خليفته سيعفو عنه يوماً، ولذلك لم يرثِ نفسه ويندبها أو يفرق من الموت على غرار ما فعله بعض الشعراء السجناء.

وهكذا يمكن أن يلاحظ الباحث في أشعار ابن الجهم التي قيلت في السجن أنّها حملت طابعاً سياسياً، إذ الخليفة المتوكّل حاضرٌ في أغلبها، إن عن طريق التلميح أو التصريح، مهما قسا الشاعر فيها أو ألان، فمدار الأمر كلّه بيد الخليفة، حتى انكسار ابن الجهم كان لخليفته، ولم يستجد أعداءه أو يطلب منهم الشفقة، وكأنّه كان يحاججهم من خلف القضبان، وهذا يؤكّد لنا ثبات الشاعر على موقفه السياسيّ العام من خليفته ومن خصومه، ولطالما نافح عن المتوكل ونطق باسمه، ولم يتخل عن مديحه للعباسيين حتى وهو في سجنه، بيد أنّه على المستوى الخاص بالخليفة رأيناه ينعت المتوكل بأمير المؤمنين غير مرةٍ، وليس بالخليفة، ولعلّه

---

[88] الأسر والسجن في شعر العرب، تاريخ ودراسة، أحمد مختار البزرة، ص653.

[89] يُنظَر طبقات الشعراء، ابن المعتز، وذلك عندما يذكر أغراض شعر صالح ينسب القصيدة إليه، يقول: "له في ذكر الموت والقبر ما ليس لأحد"، وفي موضعٍ آخر يقول: "ومما يستحسن له قوله: ..." ويذكر طرفاً منها. ص91-92.

يريد أنْ يلفت نظره إلى ما وقع منه من ظلمٍ للشاعر، وينبّهه إلى أنّه لا يجدر بخليفة المسلمين أن يركن لأقوال الوشاة، دونما تثبّتٍ من ذلك.

ويمكن لنا أن نحدِّد الخط البياني لمراحل اعتذاره في خطابه إلى المتوكل، فهو لم يعترف بما نسب إليه أوّل الأمر، ولم يُرق ماء وجهه، وكان يتعالى على سجنه، وراح يصوِّر نفسه بالسيف القاطع المُغمَد، والليث الهادر في عرينه، والبدر المحتجب ليلة سراره، وغير ذلك من الصور التي تؤكّد أنّه لا يتضعضع لريب الدهر، ثم راح يطلب من الخليفة أن يحكّم شرع الله، ويستمع إلى الخصمين في أملٍ منه أن يبرَّأ ويطلق سراحه، ولمّا لم يُجدِ هذا نفعاً مع المتوكّل بدأ يمدحه بأنّه خير خلق الله وأنداهم يداً وأقدرهم على العفو، ويستشفع في ذلك بقرابة الخليفة من رسول الله ﷺ، طمعاً أن يحرّك ذلك عاطفة خليفته، ثمّ مال يلمح بالاعتذار وصعوبته على الأحرار، ووجد له مساغاً وأنّ القدر أرغمه عليه، إلى أن انهار في خطابه بأن بدأ يطلب العفو والصفح على نحوٍ صريح كما يفعل العبد المذنب مع سيّده، وكأنّ رجاءه قد انقطع بعد أن طال حبسه، وخشي أن يورثه ذلك اقتراب الموت.

بقي أن يشير الباحث إلى أنَّ أجود قصائد عليّ بن الجهم جاءت في سجنه، فقد أعجب النقاد بداليّته التي افتخر فيها بنفسه، مولّداً صوراً شتّى تدلّ على كبريائه وإرادته الحياة، ما يؤكّد أنّ الإبداع يُولَد من رحم المعاناة.

المصادر والمراجع

- أدباء السجون، عبد العزيز الحلفي، دار الكاتب العربي، بيروت، بلا ط، بلا تا.

- الأسر والسجن في شعر العرب "تاريخ ودراسة"، أحمد مختار البزرة، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط1، 1405هـ-1985م.

- الأعلام، خير الدين الزركلي (المتوفى: 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط15، أيار/2002م.

- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3، 1429هـ-2008م.

- أمالي المرتضى، الشريف المرتضى علي بن الحسين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، بلا ظ، 1998.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: 646هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ط1، 1406هـ- 1982م.

- البداية والنهاية، ابن كثير (ت: 774هـ)، دار الفكر، بلا ط، 1407هـ-1986م.

- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت: 255هـ)، دار الهلال، بيروت، بلا ط، 1423 هـ.

- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 1425هـ-2004م.

- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، (ت: 369هـ)، دار التراث – بيروت، ط2، 1387هـ.

- ديوان صالح بن عبد القدوس البصري، جمع وتحقيق: عبد الله الخطيب، دار منشورات البصري، بغداد، 1967، بلا ط.

- ديوان علي بن الجهم، تح: خليل مردم بك، دار الآفاق، بيروت، ط2، 1400هـ-1980م.

- ديوان النابغة الذبياني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، بلا تا.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد العَكري الحنبلي (ت: 1089هـ)، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط1، 1406 هـ - 1986 م.

- شعراء عباسيون في غياهب السجون، د. محمد حسين عبد الرحيم السماعنة، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، مصر، العدد 211، 2019م.

- شعر علي بن الجهم دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، سماح يوسف حسن أبو رياش، جامعة الخليل، 2014م.

- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ.

- الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت: نحو 395هـ)، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيرو

ت، 1419هـ.

- الصورة الفنية في شعر علي بن الجهم، عبد السلام الراغب، دار القلم العربي ودار الرفاعي للنشر، حلب، سورية، ط1، 1430هـ-2009م.

- طبقات الشعراء، ابن المعتز (ت: 296هـ)، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف – القاهرة، ط3.

- العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط6.

- العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط10، 1996.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني (ت: 463 هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1401هـ-1981م.

- عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، دار الكتب العلمية –بيروت، 1418هـ.

- لسان العرب، ابن منظور (ت: 711هـ)، دار صادر-بيروت، ط3، 1414هـ.

- المحاسن والأضداد، عمرو بن بحر الجاحظ (ت: 255هـ)، دار الهلال، بيروت، 1423هـ.

- المحاسن والمساوئ، البيهقي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، بلا ط، بلا تا.

- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: 502هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط1، 1420هـ.

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، اليافعي (المتوفى: 768هـ)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1417هـ - 1997م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، دار الكتب العلمية، بيروت، شرحه وقدم له: د. مفيد محمد قميحة، ط2، 1425هـ، 2004م.

- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: 626هـ)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ-1993م.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، (ت: 626هـ)، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.

- معجم الشعراء، المرزباني (ت: 384 هـ)، بتصحيح وتعليق : الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1402هـ - 1982م.

- الملل والنحل، أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبو بكر أحمد الشهرستاني، تح: عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، لبنان، بلا ط، بلا تا.

- موضوعات شعر السجون في العصر العباسي، "الشكوى والعتاب أنموذجاً"، حسن منصور أحمد سوركتي وخالد علي إدريس، بحث في مجلة العلوم الإنسانية (03،2014)– كلية اللغات- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.

- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي (ت: 764هـ)، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، 1420هـ-2000م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلّكان (ت: 681هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، بلا ط.